فريق
متميزون
E-BOOK

لحن كرويتزر

ليو تولستوي

ترجمة: د. سامي الدروبي

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

لحن كرويتزر

تولستوي

ترجمة: سامي الدروبي

1

"أما أنا فأقول لكم كل من ينظر إلى امرأة فيشتهيها فقد زنى في قلبه".

(إنجيل متى الإصحاح الخامس 28)

قال له تلاميذه: "إذا كان هكذا أمر الرجل مع المرأة، فلا يحسن أن يتزوج"

فقال لهم: "ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم".

(إنجيل متى الإصحاح التاسع عشر 10 و11)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن في مطلع الربيع. القطار يجري منذ يومين. المسافرون الذين يقطعون مسافات قصيرة يدخلون إلى العربة ويخرجون منها. غير أن هنالك ثلاثة أشخاص بدأت رحلتهم، مثلي أنا، منذ أول سير القطار: سيدة دميمة جاوزت الصبا، تدخن، منهوكة شاحبة، ترتدي معطفًا لا هو من معاطف الرجال ولا هو من معاطف النساء بل هو بين بين، ورجل يصحبها، مهذار مكثار، في نحو الأربعين من عمره، يرتدي ملابس جديدة، ثم رجل منزوٍ، قصير القامة، ما يزال شابًا، ولكن شعره مصفَرْ أشيب قبل الأوان، في عينيه إلتماع واتقاد، فهما تنتقلان من شيء إلى شيء بمثل لمح البرق، إنه يرتدي معطفًا عتيقًا ياقته من فراء، لا شك أنه خرج من بين يدي خياط حاذق، وعلى رأسه قبعة من هذا الفراء نفسه، فإذا فك أزرار المعطف رأيت تحته باديوفكا ([1])، وقميصًا روسيًا مطرزًا، ومن غرائب هذا السيد أنه كان يطلق من حين إلى حين أصواتًا عجيبة تشبه أن تكون سعالًا أو ضحكًا لم يكتمل. وقد حرص طوال الرحلة على أن يتحاشى كل علاقة أو إتصال بالمسافرين. فكان إذا حاول جيرانه أن يحدثوه يجيب بكلمات موجزة حاسمة. وكان يقرأ أو يدخن وهو ينظر من خلال النافذة، أو يتناول شيئًا مما يضمه كيسه من زاد فيشرب قليلًا من الشاي أو يزدرد لقمة من طعام. كان يخيل إليّ أن وحدته تثقل عليه، فهممت غير مرة أن أتحدث معه، ولكنه كان متى إلتقت نظراتنا (وهي تلتقي كثيرًا لأننا متقابلان)، يشيح بوجهه، ويتناول كتابه أو ينظر من النافذة.

ففي سهرة اليوم الثاني، أثناء توقف القطار في محطة هامة، مضى هذا الرجل العصبي فجاء بماء ساخن وصنع لنفسه شايًا. أما الرجل الآخر الذي كان يرتدي ملابس جديدة، وهو محام فيما علمت بعد ذلك، فقد ذهب يحتسي الشاي في المحطة نفسها مصطحبًا جارته المدخنة التي كان معطفها لا هو من معاطف الرجال ولا هو معاطف النساء بل بين بين.

وفيما كان هذا السيد وهذه السيدة غائبين، دخل العربة أشخاص جدد، بينهم شيخ حليق، مغضن الوجه، فارع القامة، لعله تاجر، كان يرتدي سترة من فراء، وعلى رأسه خوذة من الجوخ ذات حافة ضخمة.

جلس التاجر أمام محل السيدة والمحامي، ولم يلبث أن شرع يتحدث مع فتى دخل العربة في تلك المحطة نفسها، وهو بائع في مخزن. كنت جالسًا جلسة منحرفة، فكنت أستطيع ما دام القطار واقفًا أن أسمع شذورًا من حديثهما.

قال التاجر أولًا أنه ذاهب إلى ارضه التي تبعد محطة واحدة. ثم دار الحديث، كما يدور دائمًا، على الأسعار والتجارة، وتنافس الرجلان في تلاعب التجار بموسكو الآن، وانتهى بهما المطاف إلى الكلام على معرض نيجني نوفجورود. فأخذ الفتى يقص على الشيخ ضروب الفجور والفسق التي تعاطاها في المعرض تاجر غني يعرفانه كلاهما، ولكن الشيخ لم يدع الفتى يتم كلامه، بل أخذ يروي له أنواع اللهو والمجون التي أسهم هو نفسه فيها بمدينة كونافين. كان واضحًا أنه يعتز بمساهمته في ذلك، فكان يقص على الفتى، وقد لاح في وجهه الفرح، كيف قام مع ذلك الصديق نفسه، وهما في حالة السكر، بمدينة كونافين، بمأثرة تبلغ من الفحش أن المرء يستحي أن يتحدث عنها إلا همسًا.

فما إن سمع الفتى القصة حتى انفجر يقهقه قهقهةً هزت العربة كلها، وأخذ الشيخ يضحك هو الآخر كاشف ا عن سنين صفراوين. وقدرت أنني لن أسمع شيئًا شائقًا، فنهضت لأمشي على الرصيف قليلًا قبل أن يتحرك القطار.

فصادفت المحامي والسيدة عند مدخل العربة يسيران ويتحدثان بحرارة.

قال لي المحامي الأنيس:

- لن يتسع الوقت، فإن دقة الجرس الثانية توشك أن تدوي. وفعلًا، ما إن وصلت من سيري على الرصيف إلى نهاية القطار، حتى قُرع الجرس. فلما عدت إلى العربة وجدت السيدة والمحامي ما يزالان غارقين في حديثهما الحار. ووجدت التاجر العجوز يجلس أمامهما صامتًا، وهو ينظر نظرة قاسية، ويمغمغ الكلام مستاءً من حين إلى حين.

وفيما أنا أمر قرب المحامي، سمعته يقول:

- ثم أعلنت لزوجها صراحة أنها لا تستطيع أن تعيش معه، ولا تريد أن تعيش معه، لأن.

قال المحامي ذلك، ثم راح يقص شيئًا لم أستطع أن أسمعه. ودخل ورائي بعض الركاب، ومرَّ مراقب التذاكر، ووصل أحد ضباط الشرطة راكضًا، وظلت الجلبة تمنعني خلال مدة طويلة من سماع الحديث. حتى إذا عاد كل شيء إلى الهدوء، واستطعت أن أسمع صوت المحامي من جديد، كان الحديث قد انتقل من حالة خاصة إلى نظرات عامة. فكان المحامى يقول إن مسألة الطلاق تشغل الرأي العام في أوروبا الآن، وأن أمثال هذه الحالات تكثر في بلادنا يومًا بعد يوم. فلما لاحظ المحامي أن صوته أصبح الصوت. الوحيد الذي يسمع قطع حديثه واتجه إلى الشيخ يسأله، وهو يبتسم إبتسامة تودد وتحبب:

- هذه أمور ما كان لها وجود في الماضي، أليس كذلك؟

فأراد الشيخ أن يجيب بشيء، ولكن القطار اهتز في تلك اللحظة، فرفع الشيخ خوذته، وأخذ يرسم إشارة الصليب، ويدمدم بدعاء.

فحول المحامي نظره، وانتظر في أدب. فلما انتهى العجوز من دعائه، ورسم إشارة الصليب ثلاث مرات، ووضع خوذته على رأسه قائمةً، وأحكم دسها، واستراح في جلسته وأخذ يتكلم، مقال:

- قد كان لهذه الأمور وجود في الماضي أيها السيد، ولكنها كانت أندر منها الآن. ولا بد أن تجري الأمور هذا المجرى في أيامنا هذه، لأن الناس قد أفرطوا في الثقافة.

كان القطار يزداد سرعة، وكان إذ يمر على مفاصل السكك يحدث ضجة قوية، فأصبحت لا أستطيع سماع الكلام، ولكن الحديث كان شائقًا فاقتربت.

وكان جاري - الرجل العصبي المتقد العينين - يمد أذنه ويصيخ بسمعه دون أن يتحرك من مكانه. كان واضحًا أن هذا الحديث يهمه ويشوقه.

قالت السيدة وهي تبتسم إبتسامةً خفيفة:

- لماذا تظن أن الثقافة تضر؟

ثم أضافت تقول، لا جوابًا على الكلام الذي نطق به محدثها حقًا، بل على الكلام الذي تظن أنها سمعته، وذلك على عادة كثير من النساء:

- هل الأفضل حقًا أن يتزوج الخطيبان دون أن يستطيع أحدهما رؤية الآخر، كما كان يقع في الماضي؟

ثم اتجهت إلى المحامي وإليَّ أنا، لا إلى العجوز الذي كانت تحدثه، فقالت:

- كان الخطيبان لا يعرفان هل هما متحابان، يمكن أن يتحابا يومًا، كان الفتى يتزوج أي فتاة، وكانت الفتاة تتزوج أي فتى، ليتألما بعد ذلك مدى الحياة. هل هذا في رأيك أفضل؟

فكرر الشيخ يقول وهو ينظر إلى السيدة في احتقار، ولا يجيب على سؤالها:

- لقد أفرط الناس في الثقافة.

قال المحامي وهو يبتسم إبتسامةً يسيرة لا تكاد تدرك:

- أود لو أعرف كيف تفسر العلاقة القائمة بين الثقافة وبين الخلاف في الزواج.

فأراد العجوز أن يجيب بشيء، ولكن السيدة قاطعته تقول:

- ذهب ذلك الزمان...

غير أن المحامي قاطعها بدوره قائلًا:

- افسحي له مجال التعبير عن رأيه.

فقال العجوز جازمًا:

- كل حماقة مردها إلى الثقافة.

- يزوجون شخصين غير متحابين ثم يعجبون لما يقع بينهما من خلاف.

هذا ما أسرعت تقوله السيدة، وهي تلتفت نحو المحامي، ونحوي، وحتى نحو الفتى البائع، الذي نهض عن مكانه، وإتكأ على ظهر المقعد، وأخذ يصغي إلى الحديث مبتسمًا.

قالت السيدة، رغبة منها في إدهاش المحامي من غير شك:

- الحيوانات وحدها تتزوج على مشيئة سيدها. أما البشر فلهم ميولهم وعواطفهم.

قال العجوز:

- خطأ أن تقولي هذا الكلام يا سيدتي، فالحيوان بهيم، أما الانسان فيجب أن يعيش وفقًا للقانون.

فأسرعت السيدة تقول:

- ولكن كيف يعيش المرء مع إنسان لا يحبه؟

أغلب الظن أن هذه الآراء كانت تبدو للسيدة جديدة كل الجدة.

قال العجوز بلهجة متعالمة:

- كان الناس في القديم لا يولون هذا الأمر كبير إهتمام، والآن إنما أخذوا يهتمون به. أصبحت المرأة تقول لزوجها عند أيسر مناسبة. أريد أن أتركك حتى بين الفلاحين: "إليك قمصانك وسراويلك فخذها، إني ذاهبة مع فانكا، فضفائر شعره أجمل من ضفائر شعرك!"، مارأيك في هذا؟ إن أول شيء يجب أن يتوافر في المرأة هو الخوف.

نظر المستخدم إلى المحامي، ونظر إلى السيدة، ونظر إليّ، وفي فمه إبتسامة يحبسها، مستعدًا لتأييد كلمات العجوز أو للضحك منها تبعًا لما سنستقبل به هذه الكلمات.

قالت السيدة:

- أي خوف تعني؟

- خوف المرأة من رجلها.

- لا يا عم، هذا زمان مضى وانقضى.

قالت السيدة في شيء من الحنق.

فقال العجوز وهو يهز رأسه:

- لا يا سيدتي، ذلك الزمان لا يمكن ان ينقضي. لقد خلقت حواء من ضلع الرجل، وستظل كذلك إلى آخر الدهر...

قال العجوز ذلك وقد لاح في وجهه من القسوة ومن معاني الظفر ما جعل الفتى المستخدم يعتقد فورًا أن التاجر قد أحرز النصر، فأخذ يضحك ضحكًا صاخبًا.

قالت السيدة ملتفتة إلينا دون أن تريد الخضوع:

- هكذا تفكرون أنتم معشر الرجال... تهبون الحرية لأنفسكم وتريدون أن تحرموا منها النساء وأن تسجنوهن. ولا شك في أنكم تبيحون لأنفسكم كل شيء.

فقال التاجر يتابع كلامه في غمز:

- ما من أحد يمنح إذنًا. ولكن الرجل لا يحمل إلى البيت شيئًا، أما المرأة الزوجة فهي آنية سريعة العطب.

كان واضحًا أن لهجة الثقة التي كان يتحدث بها العجوز قد أخذت تنتصر على مستمعيه، حتى أن السيدة نفسها أحست بأنها غُلبت، ولكنها لم تشأ بعد أن تستسلم.

قالت:

- نعم، ولكنني أعتقد أنك توافقني على أن المرأة إنسان كالرجل سواء بسواء. فماذا يجب أن تعمل إذا كانت لا تحب زوجها؟

فلما سمع التاجر هذا الكلام اكتسى وجهه شكلًا رهيبًا وحرك حاجبيه وشفتيه، ثم ردد يقول:

- لا تحب؟ لا تخافي، إنها ستحب.

أُعجب الفتى البائع بهذه الحجة التي لم تكن منتظرة، أُعجب بها إعجابًا خاصًا، فأطلق صوتًا يحبذها ويؤيدها

قالت السيدة:

- لا لن تحب، وإذا لم يكن حب، فلا يمكن الإكراه على الحب.

قال المحامي:

- وإذا خانت المرأة زوجها، فماذا يحدث؟

فأجاب العجوز بقوله:

- هذا أمر يجب أن لا يقع. يجب أن نراقب هذا الأمر.

- ولكن ماذا نعمل إذا وقع هذا الأمر رغم كل شيء؟ ذلك أنه يقع فعلًا.

قال العجوز:

- يقع عند غيرنا، أما عندنا فلا.

صمت الجميع، فتحرك الفتى البائع، واقترب أكثر من ذلك، وأخذ يقول مبتسمًا، لأنه لا يريد أن يقصر عن الآخرين في الحديث:

- وقعت فضيحة لشاب من عندنا. وهي حالة يصعب القطع فيها برأي. لقد تزوج امرأة خفيفة طائشة، فبدأت شيطناتها. كان الشاب رضيًا مثقفًا. بدأت علاقاتها بالكاتب. فحاول زوجها أن يردعها وأن يردها إلى الصواب في رفق وصداقة. ولكنها لم تأبه. واستمرت في فسادها. سرقت ماله. ضربها. لا جدوى. كانت تزداد سوءًا. حتى لقد عقدت صلة مع يهودي غير معمد، عفوكم إذا ذكرت هذا... ماذا كان على الزوج أن يعمل؟ لقد هجرها هجرًا تامًا... وعاش بعد ذلك عازبًا، ومضت هي لا تلوي على شيء.

قال العجوز:

- صاحبك رجل غبي أبله. لولا أنه أرخى الحبل على الغالب منذ البدء، ولولا أنه لم يظهر شيئًا من القسوة والصرامة حقًا، لبقيت له... ثق بذلك. يجب أن تقمع الحرية منذ البدء. لا تأمن لحصان في الحقل ولا لامرأة في البيت ([2]).

وفي هذه اللحظة دخل المفتش، وطلب التذاكر من المسافرين الذين سينزلون في المحطة الآتية، فناوله العجوز تذكرته.

- نعم، يجب شد البرغي منذ البدء، وإلا ضاع كل شيء.

لم أستطع أن أحبس نفسي عن الكلام، فقلت:

- ولكنك رويت أنت نفسك منذ قليل كيف كان الرجال المتزوجون يعيشون في معرض كونافين.

- هذا شيء آخر.

قال العجوز ذلك، ثم غرق في الصمت.

فلما دوى صوت الجرس، نهض التاجر، وأخرج كيسه من تحت المقعد، وزر سترته، وخرج من العربة وهو يرفع خوذته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

ما إن مضى المجوز حتى ارتفعت عدة أصوات تتكلم. قال الفتى البائع:

- إنه حقًا من التوراة، هذا العم.

وقالت السيدة:

- إنه دوموستري ([3]) حي. ما هذه النظرة المتوحشة إلى المرأة وإلى الزواج!..

وقال المحامي:

- نعم، ما نزال بعيدين عن رأي الأوربيين في الزواج.

قالت السيدة:

- الشيء الأساسي الذي لا يفهمه هؤلاء الناس هو أنه لا زواج بلا حب، وأن الحب هو ما يدعم الزواج، وأن الزواج الوحيد الذي يمكن أن يعد زواجًا حقًا إنما هو الزواج الذي يقدسه الحب.

كان الفتى البائع يصغي ويبتسم، فهو يريد أن يحفظ أكثر ما يستطيع حفظه من هذه المحادثات الذكية، عسى أن يستعملها يومًا.

وفيما كانت السيدة تتكلم، سمعت صوت ضحكة أو زفرة قطعت، فنظرت ورائي، فرأيت جاري، الرجل المنزوي الأشيب. ذا العينين المتقدتين، الذي كان واضحًا أن الحديث يشوقه ويهمه، رأيته قد اقترب منا دون أن نلاحظ ذلك. كان واقفًا، متكئًا على ظهر المقعد، وكان يبدو مضطربًا أشد الإضطراب. لقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة، وتجعد خده بحركة عصبية.

قال مترددًا:

- ما هو ذلك الحب الذي يدعم الزواج؟

فلما رأت السيدة أن محدثها في حالة من الاضطراب، قالت في رفق ولطف ودقة:

- الحب الحق... فإذا قام هذا الحب بين الرجل والمرأة أمكن الزواج.

فقال الرجل المتقد العينين، قال خجلًا وهو يبتسم إبتسامةً خرقاء:

- نعم، ولكن كيف نفهم هذه الكلمة: الحب الحق؟

- كل إنسان يعرف ما هو الحب.

قالت السيدة ذلك، وكان واضحًا أنها تريد أن تختم الحديث.

قال الرجل:

- أما أنا فلا أعرف، يجب أن تحددي ما تقصدينه بقولك الحب.

قالت السيدة بلا تردد:

- الأمر بسيط. الحب هو أن تؤثر شخصًا على جميع من عداه.

- أوثره لأي مدة: شهر، شهرين أو نصف ساعة؟

قال الرجل الأشيب ذلك، وأخذ يضحك.

- لا، اسمح لي، إنك تتحدث عن شيء آخر.

- بل أتحدث عن الحب نفسه.

- إن السيدة تقول (كذلك قال المحامي وهو يشير بيده إلى السيدة) أن الزواج يجب أن ينشأ عن التعلق، أو قل إن شئت عن الحب، وبهذا الشرط وحده يصبح الزواج أمرًا مقدسًا، وهي تقول ثانيًا أن الزواج لا يقوم على هذا التعلق الطبيعي ـ أعني الحب - الذي لا يشتمل على شيء من الأخلاق أو الإلزام. أهذا ما أردت أن

تقولينه؟ (وجه المحامي هذا السؤال إلى السيدة).

فأحنت السيدة رأسها إشارة أنها توافق على هذا الشرح.

وتابع المحامي يقول:

- ثم إن...

ولكن الرجل العصبي الذي أصبحت عيناه الآن كالنار اشتعالًا، وأصبح لا يستطيع أن يلجم نفسه، لم يدع أن يتم كلامه، بل أخذ يقول:

- إنني أتحدث عن هذا الشيء نفسه، عن إيثارك شخصًا من الأشخاص على سائر من عداه. ولكنني أسأل: لأية مدة من الزمن؟

- لأية مدة من الزمن؟ لمدة طويلة، وربما مدى الحياة.

قالت السيدة ذلك وهي ترفع كتفيها.

- هذا يحدث في الروايات... أما في الحياة فلا... قد يدوم هذا الايثار، في الحياة، بضع سنين أحيانًا. وهذا نادرٌ جدًا والأغلب أنه يدوم أشهرًا، إن لم يكن أسابيع، أو أيامًا، أو ساعات (قال ذلك وهو يلاحظ بداهة أن هذه الآراء تدهش الجميع. فكان يرضيه ذلك).

فقلنا نحن الثلاثة في آن واحد:

- ما هذا الكلام؟ لا، لا، من فضلك...

حتى أن الفتى البائع نفسه أطلق صوتًا يشجب به هذه الآراء. فصرخ الرجل الأشيب بصوت يعلو أصواتنا جميعًا:

- نعم، نعم، إنكم تتحدثون عما يجب أن يكون، أما أنا فأتحدث عما هو كائن. إن كل رجل يشعر نحو كل امرأة جميلة بما تسمونه حبًا.

- فظيع هذا الكلام الذي تقوله! إن بين البشر مع ذلك لعاطفة هي الحب، لا تدوم أشهرًا أو سنين، بل تستمر مدى الحياة.

- هذه العاطفة لا وجود لها. وإذا سلمنا بأن رجلًا من الرجال آثر امرأة بعينها مدى الحياة، فمن الممكن أن تُؤْثِرَ هذه المرأة عليه رجلًا آخر. كذلك كان الأمر دائمًا على هذه الأرض.

قال ذلك وهو يسحب سيجارة من علبة، فيشعلها.

فأجاب المحامي بقوله:

- ولكن يمكن أن يكون الحب متبادلًا.

- لا يمكن... أئذا جئت بحبتين من حبات البازلاء فوشمتهما، تم خلطتهما بكومة من الحب، وحركت الكومة، عادت الحبتان فالتقتا جنبًا إلى جنب؟ إن الحب المتبادل مستحيل استحالة إلتقاء هاتين الحبتين!.

ثم إن الأمر ليس أمر إحتمال فحسب، بل هو أيضا أمر شبع. مثل القائل بالحب مدى الحياة، كمثل القائل بأن شمعة يمكن أن تظل مشتعلة مدى الحياة.

قال ذلك وهو يسحب من سيجارته نفسًا كبيرًا في شراهة.

- ولكنك لا تتحدث إلا عن الحب الجسدي. أفأنت لا تؤمن إذن بحب يقوم على أساس من الإشتراك في المثل العليا، ومن القرابة الفكرية والروحية؟

كذلك قالت السيدة، فأجاب وهو يقهقه قهقهة خاصة به:

- القرابة الفكرية والروحية! الإشتراك في المثل العليا! ولكن ليس من الضروري في مثل هذه الحالة أن يكون ثمة مضاجعة (عفوكم إذا كان كلامي فظًا غليظًا)، وإضجاع الناس بعضهم بعضًا للاشتراك بينهم في المثل العليا.

قال ذلك وضحك ضحكًا عصبيًا.

فأجابه المحامي بقوله:

- اسمح لي. إن الوقائع تناقض كلامك. فنحن نرى الحالة الزوجية قائمة ونرى الإنسانية كلها أو جلها تعيش على هذه الحالة، وان كثيرًا من الناس ينعمون بحياة زوجية طويلة شريفة.

ضحك الرجل الأشيب مرة أخرى.

- تقول أولًا أن الزواج يجب أن يقوم على الحب، فإذا أعربت عن شكي في وجود هذا الحب، إلّا أن يكون تعلقًا جسديًا، حاولت أن تبرهن لي على وجود الحب بوجود الزواج. ليس الزواج في أيامنا هذه إلا كذبًا.

قال المحامي:

- لا، اسمح لي، إنما أنا أقول أن الزواج كان ولا يزال قائمًا.

- لا أنكر أنه قائم. ولكن لماذا هو قائم؟ لست أجحد أنه وجد وما يزال يوجد لدى أناس يرون في الزواج شيئًا مقدسًا يربطهم أمام الله، ولكن ليس عندنا. الناس عندما يتزوجون من أجل إرواء الشهوة، وينتج عن ذلك أحد شيئين: إما الخيانة وإما الإذعان والخيانة يمكن احتمالها. فالزوج والزوجة يتظاهران أمام الناس بالوفاء، ثم يخون كل منهما الآخر. وإذا كان هذا شرًا، فإن هذا الشر يمكن احتماله أما إذا أذعن الزوج والزوجة، فارتضيا في الظاهر أن يعيشا معًا مدى الحياة، وكان كل منهما يكره الآخر منذ الشهر الثاني، ويتمنى لو ينفصل عنه. ولكنهما يعيشان في منزل واحد، فينشأ عن ذلك أن يصبح البيت جحيمًا، وبسبب هذا يندفع المرء إلى الشراب، أو ينتحر، أو يسمم نفسه، ويسمم الآخر.

كان كلامه يزداد سرعة، فما يتيح لأحد أن يدس فيه كلمة واحدة. وشعرنا جميعًا بضيق.

قال المحامي يريد أن يقطع هذا الحديث المزعج:

- لا شك أن في الزواج فترات حرجة.

- أظن أنك عرفتني...

قال الرجل الأشيب ذلك، بلهجة ظاهرها الهدوء.

- لا، لم أسعد بمعرفتك قبل الآن...

- ليست معرفتي سعادة... أنا بوزدنيشيف الذي مر بفترة من الفترات الحرجة التي أشرت إليها، أنا قاتل امرأته...

قال ذلك وهو يلقي علينا نظرة سريعة واحدًا بعد آخر. فلم يجد أحد منا ما يقوله، فصمتنا جميعًا. قال وهو يضحك ضحكته الساخرة:

- على كل حال، لا قيمة لهذا كله. أرجو أن تعذروني. لن أزعجكم أكثر مما أزعجتكم الآن.

- ما أزعجتنا أبدًا...

قال المحامي ذلك دون أن يعرف لماذا.

ولكن بوزدينشيف عاد إلى مكانه بعنف دون أن يصغي إليه.

وأخذ المحامي والسيدة يتهامسان.

كنت جالسًا إلى جانب بوزدينشيف صامتًا لا أتكلم، لأنني لا أجد ما أقوله. وكان الظلام أشد من أن أستطيع القراءة، فأغمضت عيني، وتظاهرت بالنوم.

مضى المحامي والسيدة إلى عربة أخرى من القطار بعد أن تناقشا في ذلك مع المفتش. أما الفتى البائع فقد استلقى استلقاء مريحًا على المقعد ونام.

وظل بوزدنيشيف يدخن سجائره، ويشرب من الشاي الذي أحضره من المحطة السابقة.

فلما فتحتَ عينيّ ونظرتَ إليه قال لي بلهجة حازمة:

- ربما كان يزعجك أن تظل قريبًا مني بعد أن عرفت من أنا؟ فإذا كان الأمر كذلك، تركتك ومضيتُ إلى مكان آخر.

- أبدًا، أرجوك.

- إذن فهل لك بقليل من الشاي؟ إنه قوي جدًا.

قال ذلك وصبَّ لي شيئًا من الشاي. ثم أردف:

- إنهم يتكلمون ويكذبون طوال الوقت...

- أي موضوع تعني؟

- ذلك الموضوع نفسه. الحب الذي يتحدثون عنه ويصفونه ويصورونه. هل تريد أن تنام؟

- لا، أبدًا.

- هل تريد أن أقص عليك كيف وصلت إلى ما وصلت إليه بسبب ذلك الحب؟

- إذا كان لا يؤلمك ذلك.

- يؤلمني أن أسكت. اشرب الشاي أولًا... أم تراه قويًا؟.

كان الشاي قويًا في الواقع، حتى لكأنه بمرارة البيرة، ولكنني شربتُ قدحًا. وفي هذه اللحظة مرَّ المفتش. فتابعه جاري بنظرة خبيثة، وهو صامت، ثم لم يبدأ كلامه إلا بعد أن غاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

- إذن سأروي لك القصة.. ولكن هل تريد ذلك حقًا؟

فكررت أقول أنني أرغب في ذلك كثيرًا، فسكت، ودلكَّ وجهه بيديه، ثم بدأ:

- كي أجيد الحكاية، يجب أن أبدأ من البداية، يجب أن أذكر لك كيف ولماذا تزوجت، وماذا كنت قبل زواجي.

"كنت قبل زواجي أعيش كما يعيش سائر الناس، أعني كما يعيش سائر الناس في بيئتنا. فأنا من أصحاب الأطيان، ومتخرج من الجامعة، ومن وجوه الطبقة النبيلة. فكنت أحيا حياة فاسدة معتقدًا بأني أعيش كما ينبغي، كسائر رجال بيئتنا. وكنت أظنني رجلًا فاتنًا وعلى جانب عظيم من رفعة الخلق، فانني لم أكن أغرر بالنساء، ولا كانت لي ميول مخالفة للطبيعة، ولا كنت أجعل المجون والدعارة هدف حياتي، ككثير من رفاقي، وإنما كنت أتعاطى اللذة في رصانة ووقار، من أجل صحتي. وكنت أتحاشى من النساء أولئك اللواتي يمكن أن يربطنني بهن لولادة طفل أو لتعلق منهن. والواقع أن أولادًا ولدوا وأن تعلقًا وقع، ولكنني تجاهلت ذلك. ولم أكن أعد ذلك من رفعة الأخلاق فحسب، بل كنت أعتز به وأزهو".

وهنا توقف عن الكلام، فضحك ضحكته الساخرة، تلك التي يضحكها كلما ساورته فكرة ما. قال صائحًا:

"وهذا بعينه هو ما يثير الاشمئزاز أكثر من أي شيءٍ آخر. ذلك أن الفساد ليس حالة جسمية، فما من عهر جسمي يمكن أن يكون هو الفساد، وإنما الفساد الحقيقي أن تتحرر من كل ارتباط نفسي بالمرأة التي تعاشرها معاشرة جسدية. وهذا التحرر هو بعينه ما كنت أعتز به. مازلت أذكر إلى الآن كيف تألمتُ ذات مرة أشد الألم حين استسلمت لي إحدى النساء عن حب صادق شعرت به نحوي، فلم يتسع وقتي لأن أدفع لها مالًا! إنني لم اهدأ بالًا إلا حين استطعت أن أبعث إليها بمبلغ من المال، مبينًا بذلك أنني لم أكن أرتبط بها أي ارتباط روحي. لا تهز رأسك مؤيدًا كأنك توافقني على رأيي (بهذا هتف فجأة). أنا أعرف هذا. إننا جميعًا - وأنت أيضًا، إلا أن تكون استثناءً نادرًا - نرى هذه الآراء التي كنت أراها أيامئذ. على كل حال لا تؤاخذني. ولكن هذا كله فظيع، فظيع، فظيع!".

- ما هو الفظيع؟

- هذه الهاوية من الضلالات التي نعيشها إزاء النساء، وهذه العلاقات التي نعقدها معهن. نعم، إنني لا أستطيع أن أحتفظ بهدوئي حين أتحدث عن هذا الأمر، لا بسبب الفترة الحرجة كما قال، فحسب، بل لأن عيني قد انفتحتا منذ تلك الفترة، فأصبحت أرى كل شيء في ضوء جديد. أصبحت أرى كل شيء من قفاه!.

قال ذلك واشعل سيجارة، ثم إتكأ بكوعيه على ركبتيه وراح يتكلم.

كان يستحيل عليَّ أن أميز وجهه في الظلام. ولكني كنت أسمع صوته المقنع الجميل ممتزجًا بقرقعة عجلات القطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

"نعم إنني لم أفهم أين ينوي وسبب كل شيء، لم أفهم ما يجب أن يكون ولا فظاعة ما هو كائن، إلا بعد أن تألمت كما تألمت، لم أفهم هذا كله إلا بفضل ما عانيت من عذاب".

"انظر كيف ومتى بدأت الأحداث التي أدت بي إلى أن ارتكب الفعل الذي ارتكبته. لقد بدأ ذلك حين لم أكن قد بلغت السادسة عشرة من عمري. كنت في المدرسة الثانوية، وكان أخي الأكبر طالبًا في السنة الأولى من الجامعة. لم أكن قد عرفت النساء بعد، ولكنني، كسائر أطفال بيئتنا التعساء، كنت قد فقدت براءتي: كان قد جرفني الأشقياء إلى الفساد. كانت المرأة، منذ ذلك الحين، (لا أعني إمرأة بعينها، بل المرأة جملة، المرأة كمخلوقة لطيفة ناعمة، كجسد عارٍ) كانت المرأة تقض مضجعي. كانت خلواتي غير نقية، غير طاهرة. كنت أتعذب كما يتعذب تسعة وتسعون في المائة من صبيتنا. كنت أخاف، وأتألم، وأصلي، وأزل. كنت أستسلم للفجور خيالًا وواقعًا، ولكنني لم أكن قد خطوت الخطوة الأولى بعد. كنت أنهد وحدي، دون أن أجر معي كائنًا إنسانيًا آخر. ثم جاء رفيق من رفاق أخي، وهو طالب مرح، يُقال أنه فتى طيب أي أنه أتفه الشباب طرًا، فعلّمنا الشرب ولعب الورق. وأقنعنا ذات يوم، بعد أن شربنا، أن نذهب إلى هناك. ذهبنا. كان أخي بريئًا أيضًا، وإنما زلَّ في تلك الليلة. ولطخت نفسي، أنا الفتى الذي لم أبلغ السادسة عشرة من عمري لطخت نفسي وساهمت في تلطيخ المرأة، دون أن أفهم ماذا أعمل. لم أكن قد سمعت من أحد ممن يكبرونني سنًا بأن ما أفعله شر. والآن أيضًا لن يسمع أحد ذلك، صحيح أن هذا مستنكر في الأوامر والنواهي، ولكن الأوامر والنواهي لاتفيد إلا في الإجابة على أسئلة الكاهن أثناء امتحان الدروس الدينية، وهي تعد دون قواعد الصرف والنحو خطورة. فأنا إذن لم أسمع يومًا من أحد ممن يكبرونني سنًا وأحترمهم، أن هذا الأمر شر. بالعكس، كان هؤلاء أنفسهم. يجدون ذلك شيئًا حسنًا جدًا، كنت أسمع أن ما أعانيه من ألوان الصراع والعذاب يزول متى فعلت ذلك، وأن ذلك مفيد للصحة، وكانت الكتب تقول هذا الشيء نفسه. أما رفاقي فكانوا يجدون في هذا ميزة من الميزات. خطر المرض؟ لقد احتاطت الحكومة نفسها لهذا الأمر، إنها تعنى بهذا الموضوع، فتراقب بيوت الدعارة، وتكفل سيرها سيرًا مضطردًا، وتسهل على تلاميذ المدارس الثانوية أن يفسقوا دون خوف. إن هناك أطباء يسهرون على هذا الأمر، ويتقاضون على ذلك أجرًا. وهم يؤكدون أن الفسق مفيد للصحة، فينظمون الدعارة تنظيمًا سليمًا مضطردًا. وإني لأعرف أمهات تسهر على صحة أبنائها هذا النوع من السهر. ان العلم يرسلهم إلى بيوت الدعارة...

- العلم؟ ماذا؟

- أليس الأطباء كهنة العلم؟ إن كهنة العلم هؤلاء هم الذين يفسدون الشبان، إذ يؤكدون أن ذلك مفيد للصحة، ثم يعالجونهم بعدئذ من مرض الزهري في كثير من الإهتمام.

- هل يجب أن يعالج الشبان من مرض الزهري؟

- لو أنفق جزء من مائة جزء مما ينفق من جهد لمعالج الزهري، لو أنفق على القضاء على الدعارة لأمكن أن يستأصل مرض الزهري نفسه منذ مدة طويلة. أما الآن فإن الجهود تنصرف لا إلى القضاء على الدعارة، بل إلى انمائها وضمان استمرارها. على كل حال، ليس هذا هو ما يعنيني الآن. المهم أنه وقع لي ذلك الشيء الرهيب الذي يقع لتسعين في المائة، إن لم يكن لأكثر من ذلك، من رجال بيئتنا، حتى بين الفلاحين، وهو أنني لم أسقط لأن إمرأة بعينها فتنتني، فما من إمرأة أغرتني، وإنما سقطت لأن الذين حولي كانوا لا يرون في هذا العمل سقوطًا، بل يرى فيه بعضهم وظيفة مشروعة مفيدة للصحة، ويرى فيه بعضهم الآخر تسلية طبيعية تغفر للشاب. كنت لا أعرف أن هذا بعينه هو السقوط، فاستسلمت لما كنت أعده لذة من جهة، وضرورة من جهة أخرى، كما تعلمت ذلك في عمر من الأعمار. اندفعت إلى هذه الدعارة اندفاعي إلى الشراب وإلى التبغ. على أن هذا السقوط الأول كان يشتمل على شيء خاص مؤثر. أتذكر أنني أصبحت حزينًا أهمُ أن أبكي حتى قبل أن أخرج من الغرفة... كنت أريد أن أبكي عذريتي وآرائي في المرأة، نعم، لقد فسدت علاقاتي البسيطة الطبيعية بالمرأة فسادًا لا يمكن إصلاحه، فمنذ ذلك الحين أصبح يستحيل عليّ أن أعقد صلات طاهرة مع إمرأة. أصبحتُ فاسقًا. تلك حالة جسيمة تشبه حالة الإدمان على المورفين أو الشراب أو التبغ. فكما أن المدمنين على هذه الأمور يصبحون أشخاصًا غير أسوياء، كذلك من يعاشر عدة نساء نشدانًا للذة، يفسد إلى الأبد، يصبح فاسقًا. إنه يُعرف من وجهه، ومن حركاته، كما يعرف المدمن على السُكْر أو على المورفين من وجهه ومن حركاته. والفاسق قد يكافح ميوله، فيعف، ولكن علاقاته بالمرأة لن تكون يومًا علاقات طبيعية، بسيطة، صافية، نقية. إنك تستطيع أن تعرف الفاسق من طريقته في النظر إلى إمرأة، من طريقته في التدقيق في إمرأة. ولقد أصبحتُ فاسقًا، وظللت كذلك، وهذا ما ضيعني".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

"هذا ما وقع. ثم إني أوغلت في ذلك أبعد فأبعد. فعقدت أنواعًا من العلاقات لا حصر لها. اللهم إني لأخاف أن أتذكر جميع المفاسد التي اقترفتها في هذا الإتجاه. هكذا أتذكر نفسي الآن، وأتذكر أن رفاقي كانوا يلومونني على براءتي المزعومة... على كل حال، أنا لا أعد شيئًا إذا قست مغامراتي بما أسمعه عن مغامرات كثير من الشبان المترفين، والضباط، والباريزيين، إن هؤلاء الفجرة الذي قاربوا الثلاثين من العمر، وأخفى ضميرهم مئات من الجرائم ارتكبوها في حق النساء مثلي، لا يصدون عن دخول قاعات الإستقبال وصالات البالات، مغتسلين حالقين معطرين، مرتدين الفراك أو غيره من الألبسة الرسمية علامة الطهارة... يا لهذا المنظر الرائع. فانظر إذن فيما ينبغي أن يحدث وفيما يحدث في الواقع. إن الشيء الطبيعي، حين يأتي رجل من هذا النوع من الرجال، فيقترب من أختي أو من ابنتي في إجتماع من هذه الإجتماعات، من الطبيعي أن أمسكه أنا الذي أعرف حياته، وأن أنتحي به جانبًا لأقول له: "يا عزيزي، أنا أعرف الحياة التي تعيشها، وأعرف مع من تقضي لياليك. ما مكانك هذا المكان. فليس هنا إلا فتيات طاهرات بريئات. اذهب.. ذلك ما أن ينبغي يحدث. أما ما يحدث في الواقع فإننا نطرب ونتهلل حين يظهر رجل من هؤلاء الرجال، فيخاصر أختي أو ابنتي في الرقص، شريطة أن يكون على صلة بالمجتمع الراقي وأن يكون غنيًا. فلعله بعد ريجولبوش أن يشرف ابنتنا أيضًا ولا ضير أن تكون فيه آثار مرض. فالمرض تمكن معالجته في هذه الأيام. إنني أعرف بنات كثيرات زوجهن ذووهن من رجال مصابين بمرض من الأمراض، وكانوا في ذلك في كثير من الفرح والحماسة. يا لها من فظاعة! متى ينحسر القناع عن هذه الشناعات والأكاذيب!.

ضحك الرجل أثناء حديثه عدة مرات. فلما بلغ هذا المبلغ من الكلام أخذ يشرب الشاي. كان الشاي قويًا جدًا، إذ لم يكن هناك ماء يخفف به، وقد شعرت بشيء من الإضطراب بسبب قدحي الشاي اللذين شربتهما. ولعل الشاي قد أثر فيه هو أيضًا، فقد كان يزداد اضطرابه شيئًا بعد شيء. وكان صوته يزداد حلاوة رنين وقوة تعبير. وكان يكثر من تبديل اتجاهه، ويرفع قبعته ثم بضعها ثم يضعها ثم يرفعها، وكان وجه يتبدل تبدلًا غريبًا في الظلمة التي كانت تلفنا.

- نعم، لقد عشت على هذه الحال حتى الثلاثين من عمري، دون أن أهجر لحظة واحدة عزمي على أن أتزوج وعلى أن أنظم لنفسي حياة عائلية أرفع وأنقى. لذلك كنت أبحث عن فتاة تتيح لي بلوغ هذا الهدف. كنت أعيش حياة داعرة، وكنت أبحث في الوقت نفسه عن فتاة نقية يمكن أن تكون جديرة بي! ورفظت عددًا من الفتيات لا لشيء إلا لأنهن لم يكن على قدر كاف من النقاء في نظري. وعثرت أخيرًا على واحدة تناسبني. إنها إحدى ابنتين لأحد أصحاب القصور في منطقة ينزا، كان في الماضي غنيًا، ثم دمر غناه.

ففي ذات ليلة، بعد نزهة في القارب بينما كنت جالسًا إلى جانبها، في طريق العودة إلى البيت تحت أشعة القمر، أُعجب بالخطوط المتناسبة المنسجمة من جسمها

الرشيق المغمود في الحرير، وأعجب بضفائر شعرها، قررت أنها قد خلقت لي. وبدا لي في ذلك المساء أنها كانت تفهم كل ما أحس به وكل ما أفكر فيه، وبدا لي أن ما كنت أحس به وأفكر فيه شيء رائع. الواقع أن ثوب الحرير الذي كانت ترتديه هو الشيء الوحيد الذي كان يناسبها تمامًا، وكذلك ضفائر شعرها. وبعد أن قضينا يومًا في تواصل، أردت مزيدًا من هذا التواصل الحميم. إنه لغريب أمر الجمال هذا! تقول لك المرأة الجميلة كلامًا سخيفًا لا قيمة له، فتصغي إليها، ولا تسمع كلامًا سخيفًا بل تسمع كلامًا ذكيًا، وإذا حدثتك في شئون خسيسة رأيت في ذلك أمورًا رائعة. فإذا لم تقل سخافات ولم تقم بأعمال تافهة خسيسة بل اكتفت بأن تكون جميلة، اقتنعنا بأنها معجزات من معجزات الذكاء والخلق. لقد عدت إلى بيتي وأنا في حالة من النشوة السكرى، وقررت أنها ذروة الكمال وأنها لذلك جديرة بأن تكون زوجتي فلما جاء الغد خطبتها.

انظر إلى هذا الإضطراب! بين ألف رجل من رجال بيئتنا؟ ومن أفراد الشعب أيضًا، للأسف، يصعب أن تجد واحدًا لم يتزوج، قبل زفافه، عشر مرات على الأقل، إن لم يكن مائة مرة، أو حتى ألف مرة، كدون خوان مثلًا، صحيح أنك تلقى في هذه الأيام، كما أسمع عن ذلك وكما أستطيع أن ألاحظه، شبابًا طاهرين حساسين يدركون أن الزواج ليس مزاحًا، بل شيئًا خطير الشأن.

إني لأسأل الله أن يمد هؤلاء الشباب بعون من عنده. ولكنك لم تكن تستطيع في أيامنا نحن أن تجد واحدًا من هؤلاء بين عشرة آلاف شخص. إن الناس جميعًا يعرفون ذلك ويتظاهرون بأنهم يجهلونه. إن جميع الروايات تصف عواطف أبطالها في كثير من الإسهاب والتفصيل، وتصف الغدران والأدغال التي تجول حولها هؤلاء الأبطال، ولكنها إذ تتحدث عما شعر به البطل من حب عظيم نحو فتاة من الفتيات، لا تقول لنا أبدًا ماذا كان هذا البطل المحب قبل ذلك، لا تذكر لنا شيئًا عن زياراته لبيوت الدعارة، ولا عن علاقاته بالخادمات والطباخات، وحتى بزوجات الآخرين. وإذا وجدت روايات قليلة الحياء كهذه، فإن تداولها يمنع عمن يجب عليهن أن يقرأنها قبل غيرهن، أعني عن الفتيات. إن الناس يتظاهرون أمام الفتيات بأنهم يعتقدون بأن الدعارة لا وجود لها، مع أن هذه الدعارة تستغرق جزءًا كبيرًا من حياة مدننا وقرانا. ثم يبلغ الناس من شدة التعود على هذا الإخفاء أنهم يأخذون يعتقدون صادقين بأنهم على جانب عظيم من الخلق، وأنهم يعيشون في عالم طاهر، مثلهم في ذلك مثل الإنجليز. فإذا بالفتيات - الشقيات - يصدقن ذلك جادات. هذا ما كانت تعتقد به زوجتي المسكينة.

أذكر أنني أثناء الخطوبة قد أظهرتها على يومياتي التي يمكن أن تطلع منها على طرف من ماضي في أقل تقدير، وأن تعرف آخر علاقة من علاقاتي خاصة. ذلك أنها كان يمكن ان تسمع شيئًا عن هذا من الناس، ولهذا كان لا بد من أن أقص عليها ذلك. ما أزال أتذكر ما ظهر عليها من ذعر وحزن ويأس حين فهمت، واعتقدت في تلك اللحظة أنها أرادت أن تهجرني، لماذا لم تفعل ذلك؟".

قال هذا، ثم ضحك، وشرب جرعة ذلك من الشاي، وسكت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6

ثم هتف قائلًا: على كل حال، هذا أفضل، هذا أفضل. لم يقع لي إلا ما أستحقه. ولكن الأمر ليس هو هذا... لقد أردت أن أقول أن هؤلاء الفتيات التعيسات من اللواتي يخدعن في مثل هذه الحالات. والأمهات، خاصة أولئك اللواتي رباهن أزواجهن يعرفن ذلك حق المعرفة. فإذا تظاهرن بأنهم يعتقدن بطهارة الرجال، كن في واقع الأمر يتصرفن تصرفًا آخر. انهن يعرفن كيف يجتذبن الرجال إليهن، وإلى بناتهن أيضًا، فنحن معشر الرجال، لا نعرف، ما ذلك إلا لأننا لا نريد أن نعرف أن العاطفة المنزهة الشعرية التي نطلق عليها اسم الحب لا تتوقف على مزايا روحية، بل على شيء جسدي صميم، على تسريحة شعر، على لون ثوب، على تفصيلة رداء. أما النساء فيعرفن ذلك حق المعرفة. اسأل إمرأة ً معناجًا خبيرة تريد أن تفتن رجلًا، واسألها أي الخطرين تؤثر أن تتعرض له: أأن تهتم أمام الرجل الذي تريد أن تغريه بأنها كاذبة أو قاسية أو حتى داعر أم أن تظهر لهذا الرجل في ثوب بشع رديء التفصيل؟ إن أية إمرأة تؤثر الحل الأول ما في ذلك شك.

فهي تعرف أن كل رجل يكذب حين يتحدث عن عواطفه الرفيعة وأن الحب وحده هو الذي يجذبه، وأنه سيغفر من أجل الجسد كل التهم، ولكنه لن يتساهل في أمر ثوب دميم لا ذوق فيه. إن المرأة المغناج تعرف ذلك معرفة كاملة، والفتاة البريئة تحس بهذا الشيء نفسه احساس ا لا شعوريًا كالحيوانات سواء بسواء. ومن ثم نرى هذه الأثواب الحريرية الهفهافة الفظيعة، ونرى هذه الغلالات الشفيفة، ونرى هذه الأكتاف، والأذرع، والنحور والأثداء التي توشك أن تكون عارية... إن النساء، خاصة أولئك اللواتي نشأن في مدرسة الرجال، يعرفن حق المعرفة أن الأحاديث التي تدور على موضوعات رفيعة ليست إلا أحاديث، أما الرجل فهو في حاجة إلى اللحم وإلى كل ما يظهر هذا اللحم في صورته الخادعة الفاتنة. وهذا بعينه هو ما يقع. ويكفي أن ننبذ هذا الرجس الذي أصبح لنا طبيعة ثانية وأن ننظر إلى المجتمع الراقي كما هو في كل عهره، حتى نرى أنه بيت من بيوت الدعارة حقًا. ألا توافقني على هذا الرأي؟"

طرح هذا السؤال ثم قاطعني قائلًا:

" اسمح لي أن أبرهن لك على صدق هذا الرأي. أنت تقول أن للنساء في بيتنا أهدافًا غير أهداف النساء اللواتي في بيوت الدعارة. وأنا أقول لا، وسأبرهن لك عن صحة دعواي. إذا اختلف الأفراد بسبب هدفهم ووجودهم وحياتهم الداخلية، فإن هذا الاختلاف لا بد أن يؤثر في مظهرهم الخارجي. فانظر إذن إلى هؤلاء النسوة الشقيات المحتقرات وأنظر من جهة ثانية إلى نساء أرقى طبقات المجتمع: ألا ترى أثوابًا واحدة، وأزياء واحدة، وعطورًا واحدة، وعُريًا واحدًا في الأكتاف والنحور والأثداء، وبروزًا واحدًا في الآليتين يلفهما الثوب اللاحق بالجسم، وميلًا واحدًا إلى الحصى الصغيرة، والأشياء الثمينة البراقة، وحبًا واحدًا لتسليات بعينها كالرقص والموسيقى والغناء.

إن الأوليات يجتذبن الرجال بكل الوسائل، كالأخريات سواء بسواء. لا فرق بين الطائفتين حتى لنستطيع أن نقول إذا شئنا الصراحة في الكلام أننا نحتقر من هن مومسات إلى حين قصير، و نحترم من هن مومسات إلى حين طويل".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

- نعم لقد سقطت إذن أمام فتنة أثواب الحرير وضفائر الشعر. ولم يكن هذا بالأمر الصعب، لأنني نشأت في ظروف تسهل تفتح الغرام، كما تسهل بيوت الزجاج تفتح النباتات. إن زيادة في الغذاء الذي يشيع الحرارة في الجسم، وكذلك العطالة الجسمية التامة التي نعيش فيها، كل ذلك لم يكن إلا إثارة دائمة للجسد، قد يدهشك هذا الكلام، ولكنه يعبر عن الواقع.

لقد ظللت أجهل أنا نفسي هذا الواقع حتى الأوقات الأخيرة أما الآن فإنني أراه رؤية واضحة. ومن أجل ذلك إنما يؤلمني أن أرى إنسانًا لا يعرف هذا الواقع، وأن يهرف الناس بسخافات كسخافات تلك السيدة التي كانت تتحدث هنا منذ قليل.

في الربيع كان عدد من الفلاحين يعملون في تسوية حصى السكة الحديد قرب مزرعتي. إن الطعام الذي يتناوله فلاح من الفلاحين عادة هو الخبز والبصل. والفلاح يعيش بهذا الطعام قوي الجسم صحيح العافية، ويقوم بعمله في الحقول. فإذا اشتغل في أعمال السكة الحديد كان طعامه اليومي نصف كيلو من اللحم وجريش القمح. ولكنه ينفق هذا المقدار من الطعام في عمله ست عشرة ساعة من اليوم محركًا عجلة وزنها ثلاثون كيلوغرامًا. هذا طبيعي. أما نحن الذين يبتلع أحدنا كيلو من اللحم وشيئًا من الطير والسمك وأطباقًا أخرى ساخنة ومقادير كبيرة من الشراب، فكيف ننفق هذا الطعام كله؟ إننا ننفقه إفراطًا في ملذات الحس. وسعيد ذلك الذي فتح له حمام الأمان هذا. أما من أوصد له، كما فعلت أنا خلال فترة من الوقت، فسرعان ما تنشأ عنده تلك الحماسة التي إذا مرَّت أشِعتها في موشور حياتنا المصطنعة، صارت إلى غرام من أطهر الغرام. غرام أفلاطوني في بعض الأحيان. لقد أصبحتُ عاشقًا كما كثير من الناس عشاقًا. ونجح كل شيء: النشوة والحنان والشعر. والحق أن هذا الفسق لم يكن إلا ثمرة شيئين: نشاط الأم والخياطات من جهة، وفراغ الحياة وكثرة الطعام من جهة أخرى. فلولا تلك النزهة في القارب، ولولا الخياطة، أي لو بقيت زوجتي في المنزل مرتديةً مبذلًا بشعًا، ولو كنت من جهتي أعيش في ظروف سوية، أي لو كنت لا أتناول من الطعام إلا ما أنا في حاجة إليه للعمل، ولو كان صمام الأمان عندي مفتوحًا لا موصدًا عرضًا، لما عشقت، ولما وقع شيء مما وقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

8

ولكن كل شيء حدث في آن واحد: حالتي أنا، والثوب الجميل، والنزهة في القارب. لقد أمكن الإفلات من هذا عشرين مرة. وكان لا بد أن يقع ذلك المساء. إنه أشبه بفخ. لست أمزح. إن الزواج يدبر الآن كما يدبر فخ. هذا طبيعي أليس كذلك؟ إن الفتاة تصبح ناضجة للزواج، فلا بد من تأمين الإستقرار لها. ومن السهل تأمين زواج للفتاة حين لا تكون دميمة وحين يكون هناك رجال راغبون في الزواج! كان يحدث هذا حتى في الزمان القديم. فمتى بلغت الفتاة سن الزواج دبر أهلها تزويجها. والإنسانية كلها ما تزال تفعل هذا إلى الآن: الصينيون والهنود والمسلمون والشعب في بلادنا. إن تسعة وتسعين في المائة على الأقل، من أفراد النوع الإنساني ينهجون هذا النهج. وليس ثمة إلا واحدًا في المائة، إن لم يكن أقل من ذلك، وجد أن هذا أمر سيئ فابتدع شيئًا جديدًا، وهذا الواحد هو معشر الفاسقين. ولكن ما هو الجديد الذي ابتدعناه؟ أن تنتظر الفتيات، بينما يطوف الرجال بينهن ويختارون منهن كأنهم في سوق. إنهن ينتظرن وكأن الواحدة منهن تقول: "أنا أنا يا عم! أنظر إلى كتفي وإلى غير كتفي.. إني خيرهن جميعًا". ولكنهن لا يجرؤن على أن يقلن هذا صراحةً. أما الرجال، فيقول واحدنا لنفسه مسرورًا كل السرور: "لن يغرر بي، لن أقع في الفخ". إنه يتجول وينظر، ويسره أن يرى كل شيء قد نظم من أجله. فإذا لم يحتط للأمر ولم يحاذر وقع الفخ.

قلت له:

- ولكن ما الذي يجب أن يعمل. هل على المرأة نفسها أن تطلب من الرجل أن يتزوجها؟

- لا أعرف حلًا، ولكن إذا كان الأمر أمر مساواة، فيجب أن تكون هذه المساواة واقعية. إذا كنت ترى أن السعي إلى الزواج يحط من القدر، فإن الحالة الراهنة تحط القدر أكثر من ذلك ألف مرة. إن الحقوق والفرص تتساوى في السعي إلى الزواج، أما هنا فالمرأة رقيق في سوق أو طعم في فخ. لو قلت لأي أم أو لأي فتاة أن همها الوحيد هو اجتذاب خطيب، لعدت ذلك منك إهانة ما بعدها إهانة. ومع ذلك فالأم والفتاة لا تفكران إلا في هذا، ولا يشغل بالهما إلا هذا. إن أفظع شيء هو أن جميع الفتيات تطارد الرجل هذه المطاردة لاصطياده. وليت هذه المطاردة تتم صريحة سافرة... لا لا، إن ذلك كله ليس إلا كذبًا ورياء...

آه ما أجمل نظرية دارون! إن ليلى تهتم كثيرًا بالتصوير! هل تأتي إلى معرض الرسم! إنه مفيد جدًا! ثم النزهات في الترويكا، وشهود المسرحيات، وسماع السمفونيات! إن ليلى مجنونة بالموسيقى. لماذا لا تشارك في هذا الأداء؟ ثم النزهات في القارب! ووراء هذا كله تكمن فكرة واحدة: تزوجني، تزوج بنتي ليلى! جرب قليلًا..

قل ذلك كله ثم أضاف: آه من الكذب!

وبعد أن شرب آخر قدحين من الشاي، أخذ يرتب الفناجين والآنية.

ثم بدأ يقول وهو يرتب الشاي والسكر في كيسه:

- إنك لتعلم أن ما يشكو منه جميع الناس من سيطرة النساء تلك إنما مرده إلى هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

قلت:

- أي سيطرة تعني؟ إن القوانين في جانب الرجال..

فقاطعني يقول:

- نعم، نعم، هذا صحيح. وما ذكرته لك منذ هنيهة يفسر هذه الواقعة العجيبة، وهي أن المرأة مُذلة إلى أبعد حدود الإذلال من جهة، وأنها التي تحكم وتسود من جهة أخرى. مثلهن في ذلك مثل اليهود، فكما يأثر اليهود بسيطرة المال مما يعانون من ذل ومهانة، كذلك تفعل النساء، يقول اليهود: ها... إنكم تريدون أن لا تكون إلا تجارًا. فاعلموا إذن أننا معشر التجار نملك زمامكم ونسيطر عليكم. وتقول النساء: ها.. إنكم تريدون أن لا نكون إلا متاعًا ولذة... فلسوف نستعبدكم إذن بهذا نفسه.. ليس حرمان المرأة من الحقوق أنها لا تستطيع أن تقترع في الانتخاب، ولا أن تكون قاضيًا من القضاة - إن الإهتمام بهذه الشئون ليس حقوقًا - وإنما حرمان المرأة من الحقوق أنها لا تستطيع أن تكون مساوية للرجل في العلاقات الجنسية، أنها لا تملك حق إختيار الرجل أو الإمتناع عنه، بدلًا من أن يختارها الرجل. فإن قلت أن هذا عار قلت إن الرجل لا يجب كذلك أن يتمتع بهذه الميزات. المرأة محرومة الآن من هذا الحق الذي هو وقفٌ على الرجل.. فلكي تعوض عن هذا الحق، تؤثر في شهوة الرجل، وتخضعه لنفسها اخضاعًا تامًا فما يكون له من الإختيار إلا ظاهره، وإنما يكون الإختيار لها في حقيقة الأمر. ومتى ملكت المرأة هذا المخرج أسرفت في اللجوء إليه والاعتماد عليه، وكان لها على الرجال سلطان رهيب.

قلت:

- أين ترى هذا السلطان؟

- أين أرى هذا السلطان؟ في كل شيء، في كل أمر. طف على المخازن في مدينة كبيرة. إن هناك ملايين المخازن، لا تستطيع أن تُقدِّر ما أنفق من جهد وعمل، فهل ترى في تسعين من مائة منها شيئًا مما يستعمله الرجل؟ إن جميع ترف الحياة مزودة للنساء، مؤمن لهن. عد المصانع! إن جزءًا كبيرًا منها ينتج أشياء لا فائدة فيها: مركبات للنساء، أثاثًا للنساء، أدوات زينة للنساء. إن ملايين الرجال إن أجيالًا من العبيد تفنى في المصانع فناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة، لا لشيء إلا إرضاء نزوات المرأة. إن عشر النوع الانساني تستعبده النساء، كما تستعبد الملكات العبيد، وتفرض عليهم العمل المرهق المضني. كل ذلك لأننا قد أذلذناهن، إذ حرمناهن من الحقوق التي يملكها الرجل، فإذا هن ينتقمن لأنفسهن بالتأثير في شهوتنا لاجتذابنا إليهن. نعم، هذا مصدر كل شيء.

لقد بلغت النساء من إتخاذ أنفسهن أداة إغراء وتحريض للشهوة أن الرجل لا يستطيع أن يعاملهن رابط الجأش هادئًا، فمتى اقترب الرجل من إمرأة، افتُتِنَ بها وطاش صوابه. كان يشق عليَّ أن أرى إمرأة في ثوب حفلة راقصة، أما الآن فأصبح ذلك

يخيفني وأصبحت أراه شيئًا خطرًا، شيئًا مخالفًا للقانون، حتى ليخطر ببالي أن أستنجد برجل من رجال الشرطة ليحميني من هذا الخطر، ليزيل هذا الخطر عني. لماذا تضحك (قال ذلك صارخًا). إنني لا أمزح. وأنا على يقين من أن الرجال سيدركون هذا في يوم من الأيام، وربما في يوم قريب، فيدهشون عندئذ من وجود مجتمع كهذا المجتمع الذي يسمح بمثل هذه المخالفات التي ترتكب في حق الراحة العامة، أعني هذه الإثارة المباشرة للشهوة عن طريق تزيين النساء أجسادهن. إن ذلك يشبه نصب الفخاخ في طريق الناس أثناء النزهات، بل هو أسوأ من ذلك! لماذا تمنع الحكومة المقامرة، ولا تردع النساء اللواتي يثير تبرجهن الشهوة؟ انهن أخطر من المقامرة ألف مرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

نعم، بهذه الطريقة أوقعت في الفخ. لقد أصبحت عاشقًا. لم أتصورها ذروة الكمال فحسب، بل تصورت نفسي كذلك أيضًا طوال فترة الخطوبة. فما من وبش من الأوباش إلا ويستطيع إذا أحسن البحث والتقصي أن يجد أوباشًا آخرين يفوقونه حقارةً من ناحية من النواحي، فيشعر من ذلك بشيء من الكبرياء والاعتزاز، ويرضى عن نفسه. ذلك ما حدث لي أنا: إن زواجي لم يكن قائمًا على حب المال، كزواج كثير من معارفي الذين تزوجوا طمعًا في مال أو طمعًا في علاقات إجتماعية عالية، فأنا غني وهي فقيرة. هذا عامل من العوامل التي جعلتني أزهو بنفسي وأرضى عنها، وأما العامل الثاني فهو أن الآخرين كانوا يتزوجون وهم ينوون أن يستمروا بعد الزواج على أن تكون لهم صلات بنساء أخريات، أما أنا فكنت أنوي أن أقف نفسي على زوجتي لا أخونها، ولا أفكر في غيرها. وكان هذا يجعل زهدي عظيمًا لا حدود له. نعم، لقد كنت خنزيرًا فضيعًا، وكنت أظن نفسي ملاكًا.

ولم تطل فترة الخطوبة. إنني لا أستطيع أن أتذكر الآن فترة الخطوبة تلك دون أن أشعر بالخجل والعار. يا للدناءة! إننا نعني بكلمة الحب حبًا روحيًا لا شهوانيًا. والعلاقة الروحية ينبغي أن تعبر عن نفسها بكلام وحديث. ولكن لا شيء من هذا هنا البتة. كان يصعب علينا، حين نخلو أن نتحدث. كان الحديث عملًا يشبه عندنا عمل سيزيف. كنا نخترع شيئًا نقوله، فإذا قلناه عدنا إلى الصمت لنخترع شيئا آخر، وهكذا دواليك. لم يكن ثمة موضوع نتحدث فيه. كل ما كان علينا أن نقوله عن تنظيم حياتنا الآتية، وعن مشاريعنا للمستقبل، قلناه بسرعة. ثم ماذا؟ لو كنا حيوانات، لعرفنا أنه ليس علينا أن نتكلم. ولكننا لسنا حيوانات، فكان يجب أن نتكلم، وليس هناك ما نتكلم فيه، لأننا كنا مشغولين بأشياء أخرى غير التي يمكن أن يعبر عنها بأحاديث. أضف إلى ذلك تلك العادة الفظيعة، عادة تقديم السكاكر. إنها لشراهة مبتذلة. وانظر إلى جميع تلك الأمور التي تهييء للزواج: إننا لا نتحدث إلا عن البيت، وحجرة النوم، والأسرة، وغلالات النوم، وأثواب البيت وقمصان الزينة، ذلك أننا لو تزوجنا على طريقة دوموستري - كما قال ذلك العجوز - لما كانت الرياش، والبائنة، والسرير إلا تفصيلات ثانوية. ولكن إذا كان تسعة على الأقل من عشرة متزوجين لا يؤمنون عندنا حتى بالقربان المقدس وإنما يفعلون ما يفعلونه انصياعًا لواجب، ولا تكاد تجد واحدًا من مائة منهم لم يتزوج قبل الزواج، ولا واحدًا من خمسين منهم غير مستعد لخيانة زوجته متى سنحت الفرصة، إذا كان معظم الناس لا يعدون الذهاب إلى الكنيسة إلا الشرط اللازم لامتلاك إمرأة معينة... فانظر إذن أي معنى فظيع يمكن أن يكون لجميع تلك التفصيلات! إن ذلك كله يدل على أننا بصدد شيء يشبه أن يكون صفقة بيع. إنهم يبيعون فتاة بريئة لرجل فاسق، ويحيطون هذا البيع ببعض الشكليات.

- جميع الناس يتزوجون على هذا النحو. وتزوجت أنا على هذا النحو، وبدأ شهر العسل الذي يطرونه أشد الاطراء. يا لها من تسمية فاحشة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

11

بهذا زفر زفرة سيئة. ثم أضاف يقول:

"كنت ذات مرة بباريز، فقرأت إعلانًا يتحدث عن إمرأة ذات لحية وعن كلب مائي، فذهبت لأرى المرأة ذات اللحية والكلب المائي، فلم أر إلا رجلًا يرتدي ثوبًا نسائيًا خليعًا، وإلا كلبًا ألبس جلد حيوان بحري وأخذ يسبح في مسبح.

كان ذلك كله شيئًا تافهًا، ولكن الدليل صحبني عند الخروج متأدبًا متلطفًا، فقال للجمهور مشيرًا إليّ "اسألوا هذا السيد، ألا يستحق الذي رآه أن يُرى؟ أدخلوا، أدخلوا أيها السادة، فرنك واحد". فاستحيَّيت أن أعترف بأن ما رأيته لا يستحق أن يرى، وكان صاحبنا يعتمد على عاطفة الحياء هذه. لعل هذا يصدق أيضًا على أولئك الذين ذاقوا بشاعة شهر العسل، ولكنهم لا يرون أن يبددوا أوهام الآخرين. أنا أيضًا لم أشأ أن أبدد أوهام أحد. ولكنني لا أرى الآن لماذا يجب أن لا أقول الحقيقة! إنني لأشعر الآن أن من واجبي أن أعلن هذه الحقيقة! لقد أحسست بما يشبه إحساسي حين تعلمت التدخين: حين تعلمت التدخين كنت أحس برغبة في التقيؤ والبصاق، ولكنني كنت أبلع لعابي متظاهرًا بأن التدخين لذيذ جدًا. إن اللذة التي يشعر بها المرء حين يدخن تأتي فيما بعد، إذا كان لا بد أن تأتي يومًا: وكذلك اللذة في الحالة التي كنت فيها: إن على الزوج أن يعوِّد زوجته على هذه العادة السيئة، كي يستمتع بها".

قلت:

- كيف تسمي ذلك عادة سيئة؟ انك تتحدث عن شيء من مميزات الكائن الإنساني!

فأجاب بقوله:

- طبيعي؟ اعلم أني على يقين من أن هذا الشيء غير طبيعي البتة. اسأل عنه الأطفال، او اسأل عنه فتاة طاهرة! لقد تزوجت أختي في سن صغيرة جدًا من رجل فاسق عمره ضعف عمرها. إنني ما أزال أذكر الدهشة التي أصابتنا حين جاءت إلينا ليلة الزواج هاربة من مخدع العرس شاحبة الوجه، غارقة في الدموع، مرتجفة أخمص القدمين إلى قمة الرأس، قائلة إنها لا تستطيع على أية حال من الأحوال أن تحكي لنا ما كان يريد بها. أبعدَ هذا شيء طبيعي. طبيعي أن يأكل المرء. فالأكل لذيذ سهل، ممتع من البداية إلى النهاية، وليس فيه ما يخجل، أما هنا فكل شيء فاحش مخجل مؤلم. لا، لا، ليس ذلك بالشيء الطبيعي لقد أيقنت بأن الفتاة الطاهرة تكره دائمًا هذا الأمر.

قلت:

- وكيف يمكن أن يستمر النوع الإنساني بدونه؟

فقال بلهجة خبيئة ساخرة وبنية سيئة سافرة، كأنه كان ينتظر هذا الجواب المعروف:

- ها.. نعم.. ضياع النوع الإنساني! حين تنصح بالامتناع عن إنجاب الأطفال يستطيع اللوردات الإنجليز أن ينتفخوا طعامًا، فذلك ممكن، وحين تنصح بذلك

الشيء نفسه زيادةَ للذة فهذا ممكن أيضًا، ولكن حاول أن تتصح بذلك الإمتناع باسم الأخلاق تنهمر عليك الاحتجاجات من كل حدب وصوب!... كأن النوع الإنساني يمكن أن ينقطع عن الوجود متى أبى عشرة رجال أو عشرون رجلًا أن يكونوا خنازير. أستمحيك العذر مع أن هذا النور يزعجني، فهل أستطيع أن أطفئه؟

قال هذا وهو يشير إلى المصباح. فأجبته بأنه يستوي عندي أن يبقى النور مشتعلًا أو يطفأ. فهبَّ واقفًا على المقعد بسرعة، على عادته، وأسدل ستارة الصوف على المصباح.

قلت:

- مع ذلك، لو أن جميع الناس اتخذوا من هذا قانونًا، لما بقيَّ النوع الإنساني..

فلم يجب فورًا، ولكنه قال وهو يجلس أمامي وجهًا إلى وجه، ويباعد ما بين ساقيه، ويسند كوعيه إلى ركبتيه:

- تسألني كيف يستمر النوع الإنساني. ولكن لماذا يجب أن يستمر النوع الإنساني على البقاء؟

- لماذا؟ لأننا بدون ذلك لا يمكن أن نوجد!

- فلماذا يجب أن نوجد؟

- لماذا يجب أن نوجد؟ لكي نعيش!

- ما هو هدف الحياة؟ إذا لم يكن ثمة هدف، وإذا كنا لا نعيش إلا لنعيش، فلا داعي إلى الوجود. وإذا كان الأمر كذلك، فإن شوبنهاور، وهارتمن، وحتى البوذيين، على حق. أما إذا كان للحياة هدف، فواضح عندئذٍ أن الحياة يجب أن تنقطع عن الإستمرار متى تحقق ذلك الهدف. هذه هي النتيجة الوحيدة الممكنة.

قال ذلك مضطربًا، وكان واضحًا أنه يحرص على هذه الفكرة أشد الحرص. وأردف يكرر قوله:

- نعم هذه هي النتيجة الوحيدة الممكنة. لاحظ أن هدف الإنسانية - الحسنات، أو الخير، أو الحب، أو ما شئت فسمه - إذا كان الهدف الذي يتحدث عنه الأنبياء: أي أن يجتمع البشر جميعًا على الحب وأن يصنعوا من رماحهم مناجل، فما الذي يحول دون تحقق هذا الهدف؟ إنها الأهواء؟

ولا شك أن الحب الجنسي الجسدي أقوى هذه الأهواء. وأسوأها وأعندها وأشرسها، فاذا زالت هذه الأهواء يومًا، وزال معها ذلك الهوى الأخير، فإن النبوءة يمكن عندئذ أن تتحقق، فيلتقي الناس على المحبة، وتبلغ الإنسانية هدفها، فلا يبقى ما يدعو إلى استمرار الحياة. أما ما ظلت الإنسانية حية، فإن لها مثلًا أعلى تصبو إليه، وطبيعي أن هذا المثل الأعلى الذي تصبو إليه الإنسانية لن يكون المثل الأعلى الذي تهدف إليه الأرانب، ولا الخنازير، وهو أن تتكاثر بأقصى سرعة ممكنة، لا ولن يكون المثل الأعلى الذي تتطلع إليه القردة أو الباريزيون الذين يريدون أن يستخرجوا من

هوى الجسد كل ما يستطيعون أن يستخرجوا منه من تفنن، وإنما سيكون المثل الأعلى الخلقي الذي يتحقق بالعفة والطهارة. ولقد جنح البشر إلى هذا المثل الأعلى دائمًا. فانظر ماذا ينتج عن ذلك:

"ينتج عن ذلك أن الحب الجسدي يصبح صمام الأمان إذا لم يبلغ الجيل الراهن هدفه، فذلك يرجع إلى أهوائه وحدها، والحب الجسدي أقوى هذه الأهواء. وإذا وُجِدَ الهوى الجسدي، وُجدَ جيل جديد، ووُجد إحتمال بلوغ الهدف في الجيل التالي. فإذا لم يبلغ هذا الجيل الهدف، جاء دور الجيل الذي يليه، وهكذا دواليك، إلى أن يتحقق الهدف وتصدق النبوءة، أي إلى ان يلتقي الناس. فإذا لم يكن الأمر كذلك، فما الذي يحدث؟"

إذا سلمنا بأن اللّٰه خلق البشر لبلوغ هدف ما، فلقد كان عليه إما أن يجعلهم فانين بلا هوى جسدي وإما أن يجعلهم خالدين. فما الذي يمكن أن يحدث في الحالة الأولى؟ الذي يمكن أن يحدث في الحالة الأولى أن البشر يعيشون ويموتون دون أن يبلغوا الهدف، ويكون اللّٰه مضطرًا عندئذ إلى أن يخلق أناسًا آخرين. أما إذا جعلهم خالدين، وسلمنا (رغم أن من الأصعب على بشر بأنفسهم وعلى أجيال جديدة أن تصلح من شأنها وأن تقترب من الكمال) بأنهم سيبلغون الهدف بعد عدة آلاف من السنين، فإن من حقنا أن نتساءل: فما الداعي إلى وجودهم عندئذ؟ وأين نذهب بهم في مثل هذه الحالة؟ ألا إن الوضع الراهن لأفضل. لعل هذه الصورة من التعبير لا ترضيك، ولعلك من القائلين بمذهب التطور. ولكن الأمر عندئذ لا يختلف. فإن النوع الإنساني، وهو أرقى أنواع الحيوان، يجب عليه، من أجل أن يبقى في صراعه مع الحيوانات الأخرى، أن يتجمع تجمع خلية النحل، بدلًا من أن يتكاثر إلى غير نهاية: يجب عليه، كالنحل، أن ينشىء أفرادًا لا جنس لهم، أي أن يحاول العفة، بدلًا من أن يثير الجسد هذه الإثارة التي يتجه إليها نظام حياتنا كله.

قال ذلك وسكت. ثم أضاف يقول:

"سيزول النوع الانساني. هل في الدنيا كلها إنسان يشك في هذا، مهما يكن رأيه. إن هذا أمر لا ريب فيه، كالموت سواء بسواء. جميع التعاليم الدينية، وجميع الدراسات العلمية تؤكد أن ذلك أمرٌ لا مناص منه. فلماذا يدهشنا أن تؤدي الأخلاق إلى هذه النتيجة نفسها؟".

قال ذلك، ثم صمت مدة طويلة وأنهى تدخين سيجارته، ثم سحب من كيسه سجائر أخرى، ورتبها في علبته القديمة القذرة.

قلت:

- إنني أفهم رأيك، وطائفة الشيكرز يقولون هذا القول نفسه.

- نعم، نعم، إنهم على حق هم أيضًا. إن الهوى الجسدي شر في جميع الأحوال. إنه شر رهيب يجب أن نحاربه، بدلًا من أن نحميه، كما تفعل في بلادنا. إن كلمات الإنجيل التي تقول بأن كل من نظر إلى إمرأة لاغرائها فقد زنا بها، لا تصدق على زوجات الآخرين وحدهن، بل تصدق على زوجاتنا أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

12

- أما في بيئتنا فالأمر ينقض ذلك. إن من لا يزال يرى. وهو عازب، أن عليه أن يعف، يرى متى تزوج أن العفة لم تعد لازمة. إن سفر العروسين بعد الزفاف، وما يؤمنانه لنفسيهما من عزلة بموافقة الأهل، ليس إلا إذنًا بالفسق. ولكن القانون الأخلاقي الذي يخترق ما يلبث أن ينتقم لنفسه بنفسه. لقد أخفقت المحاولات التي قمت بها لتنظيم شهر العسل. كنت أشعر طوال الوقت بالعار والملل. وما لبث ذلك أن أصبح ألمًا حادًا. ولقد بدأ كل شيء بسرعة. يخيّل إليَّ أنني في اليوم الثالث أو الرابع، رأيت زوجتي حزينة، فسألتها عن سبب حزنها، وقبلتها، ظانًا أن هذا هو كل ما كان يمكن أن ترغب فيه، ولكنها أبعدت وأخذت تبكي. لماذا؟ لم تكن تستطيع أن تقول لماذا. ولكنها كانت تشعر بأنها حزينة متألمة. لعل أعصابها المجهدة قد أسرت إليها بالحقيقة عن دناءة علاقاتنا. وكانت عاجزة عن التعبير عن ذلك. وسألتها فقالت إنها في حنين إلى أمها. وبدا لي أن ذلك كذب. وحاولت أن أواسيها دون أن آتي على ذكر أمها. لم أفهم أن كل ما بها هو أن قلبها مثقل، وأن الأم ليست إلا ذريعة. ولكنها لم تلبث أن غضبت لأنني لم أشأ أن أحدثها عن أمها، كأنني لم أصدقها. وقالت أنها ترى أنني لا أحبها.

فأخذت عليها أنها ذات نزوات، فإذا بوجهها يتبدل تبدلًا كاملًا على حين فجأة. لقد حل الحنق محل الحزن، واتهمتني بالأنانية والقسوة، وصبت عليَّ أسوأ الكلمات. نظرت إليها. إن وجهها كله يعبر عن الفتور، والعداوة، ويكاد يعبر عن البغض. كيف؟ ماذا؟ أين الحب؟ أين إلتقاء الروحين، أهذا هو؟ قلت لنفسي: لا، لا، ذلك مستحيل! إنها ليست هي! وحاولت أن أرقق قلبها، ولكنني أصطدمت بحاجز من العدواة الباردة المسمومة، لا يمكن التغلب عليه، فلم أفىء إلى صوابي، وغضبت أنا أيضًا، وتبادلنا كلامًا سيئًا كثيرًا، وترك هذا الشجار الأول في نفسي أثرًا وإنني لأسميه الآن شجارًا، وما هو في الحقيقة كلام، وإنما إكتشاف الهوة التي تفصل أحدنا عن الآخر، لقد استنفذت اللذة الجنسية حبنا، فإذا بالعلاقات التي بيننا تتعرى: ما نحن إلا شخصان غريبان أحدهما أمام الآخر يريد أن يتلقى منه أكبر مقدار من اللذة.

لقد أسميت ما وقع بيننا شجارًا، وما هو في حقيقة الأمر بالشجار، وإنما هو نتيجة التوقف المؤقت في علاقاتنا الجنسية. ولم أفهم أن هذا الفتور وهذه العدواة سرعان ما اختفت أمام هبة جديدة من هبات الشهوة. فاعتقدتُ أننا تشاجرنا ثم تصالحنا، وأن ذلك لن يعود. ولكن في أثناء ذلك الشهر الأول نفسه، حدثت بسرعة شديدة، فترة جديدة من الشبع فأصبح كل منا لا يفيد الآخر، فنشأ عن ذلك شجار جديد، وقد أدهشني هذا الشجار الجديد أكثر مما أدهشني الشجار الأول... قلت لنفسي: إذن لم تكن الحادثة الأولى مصادفة من المصادفات، وإنما كانت أمرًا لا بد أن يقع ولا بد أن تتكرر إذن هذه الحادثة. وقد زاد دهشتي في الشجار الثاني أنه انطلق بسبب تافه كل التفاهة، هو لوم على أمر يتصل بالمال الذي لم يكن من عادتي أن أضن به، وخاصة على زوجتي. ولكنني أتذكر الآن أنها أدارت الأمر على وجه جعل ملاحظة من ملاحظاتي تبدو تعبيرًا عن رغبتي في السيطرة عليها بالمال، فقالت

أنني أقيم على المال ما أستأثر به من حقوق عليها. إن ذلك مستحيل، إنه غباء، إنه حقارة. إنه ليس أمرًا طبيعيًا لا بالنسبة إليَّ ولا بالنسبة إليها. فغضبت ولمتها على هذه الخشونة، فردت عليّ، واستؤنف كل شيء. ورأيت في كلماتها، وفي تعبير وجهها وعينيها، نفس العدواة القاسية الباردة التي فاجأتني في المرة الأولى. أتذكر أنني تشاجرت مع أخي، ومع رفاقي، ومع أبي، ولكنني لا أعرف أن شيئًا من الشراسة المسمومة الخاصة قد ظهر يومًا في مناقشاتي مع هؤلاء. وانقضى وقت، فحلت حالة الحب والشهوة محل هذا البغض المتبادل، وواسيت نفسي قائلًا: إن هذين الشجارين ليسا إلا خطأ يمكن إصلاحه. ولكن الشجار الثالث وقع، ثم وقع الشجار الرابع، فأدركت أن الأمر ليس مصادفة، وأنه لا بد أن يقع، وأنه سيتكرر دائمًا. وذعرت من تصور ما ينتظرني. ومما زاد عذابي أن فكرة رهيبة سيطرت على ذهني، وهي أنني الإنسان الوحيد الذي يعيش مع زوجته حياة سيئة هذا السوء كله، وأن حياتي الزوجية لا تتفق مع ما كنت أتوقعه منها في حين أن هذا لا يقع للأسر الأخرى. كنت لا أعرف حتى ذلك الوقت أن هذا شأن جميع النا، وأن جميع الناس يتخيّلون مثلي أنهم منفردون بهذا الشقاء، إن جميع الناس يخفون هذا الشقاء الخاص المخزي لا عن غيرهم فحسب، بل عن أنفسهم أيضًا، ولا يجرؤون أن يعترفوا به.

بدأ ذلك منذ الأيام الأولى، واستمر طوال الوقت، وكان يزداد قوة وقسوة شيئًا بعد شيء. ولقد شعرت، في قرارة نفسي منذ الأسبوع الأول أنني ضعت، وأنه قد وقع ما لم أكن انتظره، وأن الزواج ليس شقاء فحسب بل هو أمر أشقى من الشقاء. ومع ذلك لم أشأ أن أعترف بهذا لنفسي، شأني في ذلك شأن سائر الناس (وما كنت لأعترف بهذا لنفسي الآن لولا أن الأمر قد انتهى). وإني لأستغرب اليوم كيف لم أدرك وضعي حينذاك. وكان يمكن أن أدرك ذلك، أن تلك المشاجرات كانت تقوم لأسباب يستحيل على المرء أن يتذكرها بعد إنتهاء المشاجرة. كان العقل لا يتيح لأحد منا أن يعرف أسبابًا كافية لما بينه وبين صاحبه من عداوة دائمة. وأغرب من ذلك أن الأسباب التي كانت تدفعنا إلى المصالحة غير كافية أيضًا. كانت هذه الأسباب في بعض الأحيان كلامًا أو تعليلًا أو دموعًا.. ولكنها كانت في أحيان أخرى.. آه.. عليَّ أن أتذكر هذا الأمر. نعم كانت الأسباب التي تدعونا إلى التصالح في أحيان أخرى، بعد الكلام القاسي المر الذي نتبادله.. نظرات وابتسامات وقبلات وعناقًا صامتًا... فجأة.. ثم الأمر الشنيع على حين فجأة؟ كيف يمكنني أن لا أرى حقارة ذلك كله!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

دخل مسافران وأخذا يستقران على مقعد بعيد. فصمت الرجل أثناء ذلك ولكنه ما إن أصبح صوتهما لا يسمع، حتى استأنف حديثه دون أن يقطع تسلسله:

- ذلك أن أبشع ما يدعو إلى القرف في هذا الأمر أننا نعد الحب من الناحية النظرية شيئًا مثاليًا ساميًا، مع أنه من الناحية العملية قذارة يشمئز الإنسان أن يتذكرها ويخجل من أن يتذكرها. وإذا كان الحب شيئًا يبعث على الاشمئزاز والخجل، فيجب أن يفهم على هذا النحو، ولكن الناس يتظاهرون بأنهم يجدونه أمرًا جميلًا جليلًا.

ماذا كانت أولى علامات حبي؟ كانت أولى علامات حبي أنني استسلمت للاندفاعات الحيوانية المفرطة، لا بغير حياء فحسب، بل أيضًا مع الاعتزاز بأماكن اقترافي لهذه الاندفاعات الحيوانية المفرطة، دون أن أفكر أي تفكير لا في الحياة الروحية لزوجتي ولا في حياتها الجسدية. وكنت أستغرب ما كنا نشعر به من حنق متبادل، رغم أنه كان شيئًا واضحًا: فما هو في الواقع إلا إحتجاج الطبيعة الإنسانية على الحيوان الذي يخنقها. كنت أستغرب ما بيننا من بعض. ولكن هذا البغض كان في حقيقة الأمر شيئًا لا مناص منه. فما هو إلا البغض الذي يتبادله شريكا جريمة، بسبب الحض عليها والإسهام فيها. ألم تكن جريمة أن المسكينة أصبحت حبلى منذ الشهر الأول، واستمرت علاقتنا الحيوانية أثناء ذلك؟

إنك تظن أني أبتعد عن قصتي! الحق أنني لا أبتعد عنها أبدًا. إنني أروي لك كيف قتلت زوجتي. ولقد سئلت في المحكمة عن السلاح الذي قتلتها به! ألا ما أغباهم! إنهم يظنون أنني قتلتها بسكين في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني(أكتوبر). والواقع أنني لم أرتكب جريمتي في ذلك اليوم، وإنما إرتكبتها قبل ذلك بكثير، تمامًا كما يرتكبون هم جميعًا جرائم القتل الآن، جميعًا، جميعًا...

- كيف قتلتها إذن؟

- من الغريب أن أحدًا لا يريد ان يعرف هذا الأمر الواضح الجلي الذي يجب أن يعرفه الأطباء وأن يذيعوه، ولكنهم يسكتون عنه. إنه أمر بسيط إلى أبعد حدود البساطة. لقد خُلق الرجل والمرأة كما خُلقت الحيوانات، فبعد العلاقة الجنسية يأتي الحمل، ثم يأتي الرضاع، والحمل والرضاع مرحلتان تكون العلاقة الجنسية أثناءهما مؤذية بالمرأة وبالطفل على السواء. وعدد الرجال والنساء واحد. فما الذي يترتب على ذلك؟ الأمر واضح. فليس يحتاج المرء إلى كثير من الحكمة حتى يستخرج من ذلك عين النتيجة التي تستخرجها الحيوانات، وهي الإمتناع عن الإتصال الجنسي. لقد توصل العلم إلى إكتشاف مكروبات تسمى بالكريات البيض، وتجري في الدم، وتوصل إلى إكتشاف سخافات أخرى أيضًا، ولكنه لم يفهم ذلك الأمر البسيط الواضح، أو قل على كل حال أنني لم أسمع عن هذا أبدًا.

ليس هنالك بالنسبة إلى المرأة إلا حلان: الأول هو أن تجعل من نفسها إنسانًا شاذًا، أن تحطم في ذاتها قدرتها على أن تكون إمرأة أي أمًا، حينها يستطيع الرجل أن يتمتع بها بهدوء واستمرار، والثاني، وهو حل لا يمكننا حتى أن نسميه حلًا، لأنه

مجرد خروج فظ مباشر على قانون الطبيعة، وهو ما نراه في جميع الأسر التي يزعمون أنها أسر كريمة، هذا الحل الثاني هو أن تظل المرأة حاملًا ومرضعًا وخليلة في آن واحد، على خلاف الطبيعة، وأن تهبط بذلك إلى درك دون درك الحيوانات ومن الممكن عندئذ أن تخونها قواها، ومن ثم نرى الهستريا والتعصب في بيئتنا، ونرى النساء الممسوسات في بيئات الشعب. لاحظ أن الفتيات لا يصبن بشيء من هذا. وإنما تصاب به النساء المتزوجات اللواتي يعشن مع أزواجهن. والأمر على هذا النحو في أوروبا. إن جميع المستشفيات تفيض بنساء خرجن على قانون الطبيعة وإذا كانت الممسوسات وزبائن شاركو نساء مريضات تمامًا، فإن الدنيا تعج بنساء نصف مريضات. يجب أن نتذكر عظمة الأمر الذي يتم في المرأة حين تكون حاملًا أو مرضعًا. إن ما يتحقق فيها أثناء ذلك هو ما يكفل للإنسانية أن تستمر. ونحن نعرقل هذا العمل المقدس، وبماذا نعرقله؟ إنه لشيء فظيع أن أفكر في هذا الأمر! إن الناس يتحدثون عن حرية المرأة وعن حقوق المرأة. ألا إن ذلك أشبه بما يمكن أن يفعله أكلة لحوم البشر إذا هم علفوا أسراهم ليأكلوهم بعد ذلك، وأكدوا لهم في الوقت نفسه أنهم يصونون لهم حقوقهم وحريتهم!

كان هذا الكلام كله جديدًا عليّ، فدهشت. قلت:

- فما العمل والحالة هذه؟ في رأيك إذن أنه لا يجوز للرجل أن يعاشر امرأته إلا مرة كل سنتين، في حين أن الرجل...

- لا غنى له عن ذلك..

هذا زعم لطيف آخر من مزاعم كهنة العلم هؤلاء. ما عسى يرى هؤلاء الجهابذة من رأي لو ألزمتهم أن ينهضوا بالواجب الذي تنهض به النساء اللواتي هن في رأيهم حاجة لازمة للرجال! إنه ليكفي أن تقول لرجل أن الفودكا والتبغ والأفيون حاجة لازمة له حتى لا يستطيع أن يستغني عنهما بعد ذلك.

ينتج عن هذا أن اللّٰه لم يكن يعرف ما يريد حين خلق العالم *(أستغفر اللّٰه)*، وأنه خلق العالم خلقًا سيئًا لأنه لم يسأل هؤلاء الفقهاء أن يسدوا إليه بالنصح. إنك لترى إذن أن الأمر لا يسير سيرًا حسنًا لقد أفتوا بأن الرجل في حاجة إلى إرواء شهوته، ما من ذلك مفر، ولكن هذا الارواء تعوقه الولادة ويعوقه الإرضاع، فما العمل؟ ليس علينا إلا أن نسأل الفقهاء في هذا، فيدبروا الأمر أحسن تدبير. وقد دبروه حقًا. آه من هؤلاء الفقهاء... متى ننزلهم أخيرًا عن عروشهم ونتخلص من أكاذيبهم؟ لقد آن الأوان. أنظر إلى أين وصلنا منذ الآن: إن المرء يُجن أو ينتحر بسبب ذلك. وكيف يكون الأمر على غير هذا النحو؟ لكأن الحيوانات تعرف أن ذريتها تكفل إستمرار جنسها، فهي تلتزم من أجل هذا قانونًا. إلا الإنسان لا يعرف ذلك ولا يريد أن يعرفه وإنما هو يعنى بلذته قبل كل شيء. ومن ذا الذي يفعل هذا؟ ملك الطبيعة، الإنسان. لاحظ أن الحيوانات لا تتعاشر إلا حين تستطيع أن تنجب، في حين أن منك الطبيعة، هذا الملك الفاسد، يفعل ذلك بغير انقطاع، متى وجد فيه لذه. وهو يريد فوق ذلك أن يطلق على هذا العمل الجدير بالقرود إسم الحب. وباسم هذا الحب - باسم هذه الرذيلة - ماذا نخسر؟ نخسر نصف النوع الإنساني. إن الرجل، من أجل لذته، يجعل جميع

النساء اللواتي كان ينبغي أن يساعدن الإنسانية في ارتقائها إلى الحقيقة والخير، يجعل منهن أعداء. أنظر! من ذا الذي يعرقل وثبة الإنسانية إلى الأمام؟ النساء! لماذا! بسبب ذلك وحده. نعم، نعم...

قال ذلك وأخذ يتحرك، وفتح علبة سجائره، وأخذ يدخن. كان واضحًا أنه يريد من ذلك أن يهدىء نفسه قليلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

واستأنف يقول بتلك اللهجة نفسها:

- هكذا عشت كما يعيش خنزير. والأفدح من ذلك أنني كنت أتخيل، وأنا أحيا تلك الحياة، أنني لكوني لا أغوي نساء أخريات، أعيش حياة عائلية شريفة، وأنني رجل متمسك بأهداب الأخلاق، وأني لا أقترف أي ذنب، وأن ما كان يقع بيننا من مشاجرات إنما يجب أن يعزى إليها، إلى سوء طبعها.

واضح أنها لم تكن بالمذنبة. إنها كسائر النساء، إنها كأكثر النساء. لقد نشئت كما ينبغي أن تنشأ امرأة في بيئتنا بحكم الحالة التي هي فيها، وكما نشئت جميع نساء الطبقة الميسورة بلا استثناء. إن الناس يتحدثون الآن عن ثقافة جديدة للمرأة: كل هذا لغو. إن تعليم المرأة يكون تمامًا على حسب الرأي الذي يقوم في أذهان الناس عنها.

إن تعليم المرأة سيظل متناسبًا مع رأي الرجل فيها. ونحن نعلم كيف ينظر الرجال إلى المرأة: "خمر، وامرأة، وغناء"، كذلك قال الشاعر في قصائده. أنظر إلى الشعر كله، وإلى التصوير كله، وإلى النحت كله، مبتدئًا بقصائد الغرام وبتماثيل فينوس وبيرنيه عاريتين، فماذا ترى؟ ترى أن المرأة ليست إلا أداة متعة: هي كذلك في تروبا وجرتشيفسكا ([4])، وفي أرقى سهرة من سهرات الطبقة الراقية. ذلك أن عليك أن تلاحظ مكر الشيطان: إذا كانت المرأة متعة فحسب، لذة فحسب، فيجب على المرء أن يعرف ذلك، وأن ينظر إلى المرأة على أنها شيء يقتنى لا أكثر. ولكن لا. لقد كان الفرسان يقولون أنهم يؤلهون المرأة (ربما كانوا يؤلهونها، ولكنهم كانوا يؤلهونها كأداة متعة رغم ذلك) والآن يصرح الناس بأن عليهم أن يقدروا المرأة حق قدرها وأن يحترموها. الأولون يخلون لها مكانتهم، ويتناولون المنديل من الأرض إذا سقط منها، والآخرون يعترفون لها بحق شغل جميع المناصب وحق الإشتراك في الحكم، إلى آخر ما هنالك. إنهم يفعلون هذا، ولكن الرأي يبقى واحدًا لم يتغير. إن المرأة أداة متعة، وجسدها هو الوسيلة إلى بلوغ هذه المتعة، وهي تعرف ذلك أيضًا. إن هذا لشبيه بالرق كل الشبه. ليس الرق شيئًا آخر غير استغلال فرد من الأفراد لعمل يجبر على القيام به عدد من الأفراد. ولكي لا يوجد الرق يجب ألا يرغب البشر في استغلال عمل يجبر آخرون على القيام به، ويجب أن يعدوا ذلك خطيئة أو عارًا، فما الذي تراه الآن؟ إن الصورة الخارجية للرق قد ألغيت، فأصبح لا يمكن بيع العبيد وشراؤهم، والناس يتخيلون تبعًا لذلك أن الرق لم يبق له وجود، ويقنعون أنفسهم بأن الرق قد زال. ولكنهم لا يرون أن الرق ما يزال قائمًا، لأن البشر ما يزالون يحبون أن يستغلوا عمل الآخرين، وما يزالون يرون في هذا أمرًا مشروعًا لا غبار عليه. ومتى رأوا أن ذلك خيرًا لا ضير فيه، فسيظل هنالك أناس أقوى من غيرهم وأمكر من غيرهم يستفيدون من ذلك وينتفعون به. والأمر كذلك فيما يتصل بتحرير المرأة. وإنما يقوم باسترقاق المرأة على أن الرجال يريدون أن يتخذوها أداة متعة، ويرون في ذلك خيرًا لا اعتراض عليه. إنهم يحررون المرأة، ويهبون لها حقوقًا مساوية لحقوق الرجل، ولكنهم يظلون يعِدُّونها أداة متع. تلك تربية ينشأ عليها الأطفال ويقرها الرأي العام. وبذلك تظل المرأة العبد الذليل الداعر، ويظل الرجل

ذلك التاجر، تاجر الرقيق. إنهم يحررون المرأة من أجل أن تستطيع متابعة الدروس في مجلس الجامعة من أجل أن تصبح نائبة في مجلس الأمة، ولكنهم يظلون يرون أنها موضوع لذة. وإذا علمناها أن تنظر إلى نفسها كما ننظر إليها نحن جميعًا، فستظل إلى الأبد كائنًا متخلفًا، أو أنها، بمساعدة أطباء أشرار، تتخذ الإجراءات التي تقيها من إنجاب الأطفال، فتصبح بذلك مومسًا تنحط لا إلى إدراك الحيوانات، بل إلى درك الأشياء، أو أنها تصبح ما هي عليه في أكثر الأحوال، إنسانًا خفيف العقل، مصابًا بالهستريا، بائسًا شقيًا لا سبيل له إلى النمو الروحي.

لا المدارس الثانوية، ولا المحاضرات الجامعية بقادرة على أن تغير هذه الحال، وما من شيء يستطيع تغييرها إلا تغير رأي الرجال في المرأة، وتغير رأي المرأة في نفسها. ولن يتم هذا إلا حين ترى المرأة أن البكارة خير، وأنها ليست عارًا ولا فضيحة، وإلى أن يتحقق هذا، فإن المثل الذي تصبو إليه كل فتاة، مهما يكن حظها من الثقافة، هو أن تجتذب إليها الرجال، هو أن تجتذب إليها الذكور، ليتاح لها أن تختار.

ليس أمرًا ذا بال أن تكون إحدى النساء عالمة بالرياضيات، وأن تكون إمرأة أخرى ماهرة في العزف على الهارب، إن المرأة تعد نفسها سعيدة، وتعد رغباتها متحققة حين تتوصل إلى إغراء رجل.. لذلك كانت الغاية الأساسية التي تهدف إليها امرأة هي أن تجذب. هذا ما كان في الماضي وهذا ما سيكون في المستقبل.

كذلك تجري حياة فتاة من بيئتنا، وكذلك تجري حياة إمرأة متزوجة. تلك ضرورة قبل الزواج لاختيار الزوج، وضرورة بعد الزواج للسيطرة على الزوج.

وهذا الوضع يمكن أن ينتهي أو أن يقطع متى جاء الأولاد. إذا كانت المرأة سوية فأرضعتهم هي بنفسها. ولكن الأطباء يتدخلون هنا مرة أخرى.

إن زوجتي التي كانت تريد أن ترضع أولادها بنفسها والتي أرضعت خمسة أطفال بعد الأول، قد مرضت بعد الطفل الأول. فلما فحصها الأطباء، وقد عروها من أجل ذلك دون حياء ولم يدعوا موضعًا من جسدها إلا وجسوه، وكان عليَّ أن أشكر لهم ذلك وأن أنقدهم عليه أجرًا، قد حظروا عليها الرضاع، فحرمت في الأوقات الأولى من الوسيلة الوحيدة التي كان يمكن أن تجنبها الرغبة في الإغراء. وجئنا بمرضعة أرضعت طفلنا، أي أننا استغللنا فقر إمرأة أخرى وحاجاتها وجهلها، فأبعدناها عن طفلها في سبيل طفلنا، وكسونا رأسها من أجل ذلك بعصابة تزينها ضفائر.. ليس هذا هو الأمر المهم. وإنما الأمر المهم أن زوجتي، خلال فترة حريتها وخلال مدة الحمل والرضاع قد استيقظت في نفسها تلك الرغبة النسوية التي كانت غافية فيها قبل ذلك، أعني الرغبة في الإغراء، استيقظت قوية عنيفة. ونشأ عن ذلك أن استيقظت في نفسي، قوية عنيفة أيضًا، سورات الغيرة التي ظلت تعذبني طوال حياتي الزوجية، كما تعذب سائر الأزواج الذين يعيشون مع زوجاتهم حياة غير أخلاقية مثلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

15

طوال حياتي الزوجية لم تبارحني سورات الغيرة. ولكن هذه الغيرة كانت في بعض الفترات تزداد ضرامًا. وقد بدأت إحدى هذه الفترات يوم امتنعت زوجتي بأمر الأطباء عن إرضاع طفلها الأول. فقد اشتدت غيرتي عندئذ اشتدادًا خاصًا أولًا لأن امرأتي شعرت أيام ذاك بذلك القلق الذي تشعر به كل أم حين تنقطع عن إرضاع طفلها، فتبعد عن الحياة السوية، وثانيًا لأنني إذا رأيت زوجتي تنبذ واجبها الأخلاقي نحو ابنها بسهولة، قدرت على غير وعي (وكان تقديري في محله) أنها تستطيع أن تنبذ واجباتها الزوجية بمثل تلك السهولة، خاصة وأن صحتها كانت جيدة وأنها أرضعت أولادنا الآخرين بعد ذلك رغم وصايا الأطباء الذين أرادوا أن يمنعوها عن إرضاعهم.

- واضح أنك لا تحب الأطباء!

قلت هذا إذ لاحظت أن صوته يخبتُ كلما أشار إلى الأطباء.

فقال:

- ليست المسألة أنني أحبهم أو لا أحبهم. وإنما المسألة أنهم أفسدوا حياتي كما أفسدوا ويفسدون حياة ألوف الناس ومئات الألوف من الناس، ويستحيل عليَّ أن لا أربط المعلول بالعلة... أنا أفهم أنهم يريدون كالمحامين أن يجمعوا مالًا. وأنا مستعد لأن أعطيهم نصف ما أملك مال، وكل إنسان مستعد لأن يعطيهم نصف موارده إذا هو أدرك ما يفعلون، شريطة أن يدعونا وشأننا، وأن لا يعكروا صفو حياتنا العائلية وأن لا يقاربونا ولو من بعيد. أنا لم أقم باستقصاء في الموضوع، ولكنني أعرف عشرات الحالات، أعرف حالات كثيرة جدًّا، تدخل فيها الأطباء، فإذا هم يقتلون إما الطفل قبل أن يولد، وإما الأم أثناء الولادة بإجراء عملية جراحية لها. ما من أحد يحصي جرائم القتل هذه، لأن الناس يقدرون أنها تتم لخير الإنسانية، كما قدروا في الزمان القديم أن جرائم القتل التي ارتكبتها محاكم التفتيش إنما كانت تتم لخير الإنسانية. إن الجرائم التي اقترفها هؤلاء الأطباء لا تحصى عددًا. ولكن هذه الجرائم كلها لا تعد شيئًا إذا قيست بذلك التحلل الأخلاقي الناشيء عن المادية التي يحملونها إلى العالم.

لا أتحدث أن الناس لو اتبعوا وصايا الأطباء لكان عليهم أن ينفصلوا بدلًا من أن يتصلوا، مخافة العدوى التي تتربص بهم في كل مكان: أنت تعلم أن إتباع وصايا الأطباء قد يوجب على المرء أن يلزم بيته لا يبارحه، وأن يدع في فمه دائمًا أنبوبًا مملوءًا بحامض الفوليك (مع العلم أنه قد اكتشف أخيرًا أن هذا نفسه ليس يفيد في شيء). لا أتحدث عن ذلك الأمر، فهو ليس بذي بال. وإنما السم الأول الذي ينفثه هؤلاء الأطباء هو أنهم يدفعون الناس إلى الفحش دفعًا، ولا سيما النساء.

إن الناس لا يقولون لأنفسهم ولا للآخرين: إذا كانت حياتك مسيئة فحاول أن تحسنها. وإنما يقولون: إذا كانت حياتك سيئة، فمرد ذلك إلى سوء جهازك العصبي، إلخ..، فما عليك إلا أن تذهب إلى الأطباء ليصنعوا لك دواء ثمنه 35 كوبك،

فتتجرعه فتشفى. فإذا زادت حالتك سوءًا فتجرع أدوية أخرى، وامض إلى أطباء آخرين!

يا له من تدبير رائع!...

على أن الأمر ليس هو هذا أيضًا. وإنما أريد أن أقول لك أن امرأتي كانت ترضع أطفالها بنفسها، وأن حالات الحمل والارضاع هي الأمور الوحيدة التي كانت تنقذني من سورات الغيرة. ولولا هذا لوقع كل شيء قبل ذلك. لقد أنقذنا الأطفال. ولدت خمسة أطفال خلال ثماني سنين، وأرضعتهم جميعًا إلا الأول.

سألته:

- أين هم أولادك الآن.

فسألني بلهجة وجلة:

- أولادي؟

- معذرة! قد يؤلمك أن تتذكر هذا الأمر.

- أبدًا. لقد ذهب أولادي إلى خالتهم وأخيها. لقد انتزعوا مني أولادي. تنازلت لهم عن ثروتي، ولم يردوهم إليّ. ذلك لأنهم يعدونني مجنونًا بعض الشيء. لقد كنت مع أولادي منذ قليل، رأيتهم، ولكن لم يعهد بهم إليّ. ولو قد عهد بهم إليّ لأنشأتهم تنشئة تجعلهم لا يشبهون أبويهم، في حين أن عليهم الآن أن يبقوا كما هم. ولكن ما حيلتي؟ واضح أنني لن أستطيع أن أضمهم إليّ، وأن الناس لن يصدقوني. لست أدري أنا نفسي هل أملك من القوة ما يساعدني على أن أتولى تربيتهم. أظن أنني لا أملك من القوة ما يساعدني على ذلك. أنا انسان محطم، أنا انسان عاجز. ومع ذلك هناك شيء ما أزال أملكه. أعرف هذا. نعم، نعم هذا صحيح. إنني أعرف شيئًا سيظل يجهله الناس مدة طويلة.

نعم، إن أولادي في صحة جيدة، وهم يكبرون من تلقاء أنفسهم، وينشأون متوحشين، كسائر من يحيطون بهم. لقد رأيتهم ثلاث مرات، ولا أستطيع أن أصنع لهم شيئًا. أنا ذاهب الآن إلى الجنوب، عائد إلى بيتي. إنني أملك هناك منزلًا وحديقة.

نعم إن الناس لن يطلعوا بسرعة على ما أعرف.. إنهم يستطيعون أن يتعلموا بسرعة مقدار الحديد والمعادن في الشمس والنجوم، أما أن يعرفوا ما تشتمل عليه حقارتنا، حقارة الخنازير، فذلك أمر صعب، أمرٌ على جانب رهيب من الصعوبة!.

أنت تصغي إلى كلامي على الأقل، وإني لأشكر لك هذا الجميل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

16

- ذكرتني منذ لحظة بأولادي ما أكثر الأكاذيب هنا أيضًا، في موضوع الأطفال! إنهم نعمة من السماء... إنهم فرحة... كذلك يقول الناس. وكل هذا زور وبهتان. كان ذلك صادقًا في الماضي، أما الآن فلا وجود لشيء من هذا كله. الأولاد عذاب، ولا شيء غير ذلك. أكثر الأمهات يشعرون بهذا رأسًا، وقد يفصحن عنه على غير عمد. اسأل عددًا من الأمهات في بيتنا، يقلن لك انهن من مخافة أن يرينّ أولادهن يتعذبون أو يموتون، يتمنين ألا ينجبن أطفالًا، فإذا ولد الأطفال لم يشأنَّ أن يرضعنهن حتى لا يتعلقن بهم وحتى لا يتألمن. إن اللذة التي يولدها لهن الطفل بفتنته، بيديه الصغيرتين، بقدميه الصغيرتين، بشكله كله، هي دون الألم الذي يشعرنّ به حين يتصورونه مريضًا أو ميتًا، انهن حين يوازنَّ بين فوائد الطفل وأضراره يرون أن من الخير أن لا ينجب المرء أطفالًا. هن يقلنَّ هذا بصراحة وجرأة، متوهمات أن هذه العواطف ناشئة عن حبهن للأطفال، هذا الحب الذي هو عاطفة محمودة يفاخرن بها، ولا يدركن أنهن بهذا يتكون الحب ويؤكدون أثرتهن. إن لذتهن بجمال الطفل أقل من الآلام التي يولدها لهن خوفهن عليه. لذلك يجب أن لا يولد هذا الطفل، الذي سيحببنه رغم ذلك. انهن لا يضحين بأنفسهم من أجل الكائن الذي يحببنه، بل يضحين به سلفًا من أجل أنفسهن.

وواضح أن هذا ليس من الحب في شيء، بل هو الأثرة بعينها. ولكن الناس لا يملكون الجرأة على اتهام هؤلاء الأمهات الثريات، لأنهم يتذكرون جميع تلك الآلام التي يعانونها بفضل أولئك الأطباء أنفسهم متى مرض أبناؤهم. إني إذ أتذكر كيف كانت حياة زوجتي وكيف كانت حالها، في تلك الأوقات الأولى، مع ثلاثة أطفال، ثم مع أربعة، حين كان هؤلاء الأطفال يستغرقونها استغراقًا تامًا، فإن الذعر ليستبد بي. لم يكن لنا حياة خاصة بنا. لم تكن حياتنا إلا خطرًا متصلًا، ومحاولات لاتقاء الخطر، وعودة هذا الخطر، وجهودًا جديدة لاجتنابه، ثم خلاصًا. كانت حياتنا أشبه بحياة باخرة توشك أن تغرق. وكان يتراءى لي في بعض الأحيان ان امرأتي كانت تتظاهر تظاهرًا بالقلق على الأولاد، وأنها لم تفعل ذلك إلا لتنتصر عليّ. كان الأمر مغريًا، بسيطًا، وكان ذلك يحل جميع المشكلات على ما تحب. كان يترءاى لي في بعض الأحيان أن كل ما كانت تفعله وتقوله إنما كان تظاهرًا. ولكن لا، لقد كانت تتألم هي نفسها بسبب الأطفال، بسبب صحتهم، بسبب أمراضهم. كان ذلك كله ألمًا لا يطاق، لي ولها على السواء. كان يستحيل عليها أن لا تتألم. ذلك أن الميل إلى الأطفال، والحاجة الحيوانية إلى إرضاعهم، وإلى العناية بهم، وإلى حمايتهم والدفاع عنهم، كل ذلك كان قائمًا في نفس زوجتي كما هو قائم في نفوس أكثر النساء، وإنما يعوزه أن يخلو من الخال والعقل، كما يخلو من ذلك لدى الحيوانات. إن الدجاجة لا تخاف مما قد يقع لصغارها، ولا تعرف الأمراض التي يمكن أن تصاب بها صغارها، لا ولا الوسائل التي يتخيل البشر أنهم قادرون بها على محاربة الأمراض والموت. ليس صغار الدجاجة عذابًا للدجاجة. إنها تعمل لصغارها ما يحسن بها أن تعمله، وما يفرحها أن تعمله: صغارها فرحة لها. فإذا أصاب صغيرها مرض، كانت غايتها به محدودة: فهي تدفئه وتطعمه. وهي حين تفعل ذلك تعرف أنها تفعل

كل ما يجب عليها فعله. فإذا نفق صغيرها لم تتساءل لماذا نفق، وإلى أين ذهب، وإنما تقرق قليلًا، ثم تمضي تعيش كما كانت تعيش. أما عند نسائنا الشقيات، وعند امرأتي بوجه خاص، فالأمر يختلف عن ذلك كل الاختلاف.

لست أتحدث عن الأمراض وشفائها وتربية الأولاد وما إلى ذلك، وإنما أريد أن أقول لك ان امرأتي كانت تسمع من الناس وتقرأ في الكتب عن قواعد في التربية متنوعة إلى أبعد حدود التنوع متغيرة أشد التغير، ماذا أطعم طفلي؟ أأطعمه هذا الطعام؟ لا، لا هذا، بل ذاك. كنا في كل أسبوع جديد نتعلم قواعد جديدة في جميع ما يتصل بتربية الطفل: كيف يلبس، كيف يشرب، كيف يستحم، كيف يوضع في السرير، كيف يتنزه، كيف يخرج إلى الهواء الطلق، إلخ... إلخ...، لكأن البشر لم يَلِدُوا أولادًا إلا في ذلك اليوم!.. فإذا لم يستحم الطفل كما ينبغي أن يستحم، وإذا لم يتناول من الطعام ما يجب أن يتناوله، فأصابه مرض، كان واضحًا أننا نحن المسئولون عن ذلك، أننا نحن المذنبون، لأننا لم نفعل ما كان يجب علينا أن نفعله.

إن المرء يعاني عذابًا حتى حين يكون إبنه في صحة جيدة، فإذا مرض الطفل، كان ذلك هو الجحيم. ويقدر الناس أن المرض يشفى، وأن هناك علمًا يشفي من الأمراض، وأن هناك رجالًا - هم الأطباء - يعرفون كيف يعالجون المرضى، لا كلهم طبعًا بل خِيارهم. فإذا مرض الطفل كان يجب علينا أن نعثر على واحد من هؤلاء الأطباء النخبة لينقذه من مرضه. فإذا لم تعثر على هذا الطيب، أو كنا لا نقيم في البلدة التي يقيم هو فيها هلك الطفل. لم تكن هذه القناعة قناعة امرأتي وحدها بل قناعة جميع النساء اللواتي يحطن بها في بيئتها. هذه ايكاتيرينا سافاينوننا فقدت ولدين من أولادها لأن إيفان زارهاروفتش لم يُستدعَ في اللحظة المناسبة. وهذا إيفان زارهاروفتش نفسه ينقذ البنت الكبرى من بنات ماريا ايفانوفنا لأنه تولى معالجتها من المرض الذي ألم بها. وهذا بتروف وقد اتبع وصاياه فترك الفندق في الوقت المناسب، فظل أولاده أحياء، ولولا ذلك لماتوا. وهذه فلانه كان ابنها ضعيفًا، فنصح ذلك الطبيب بالسفر إلى الجنوب، ففعلت ذلك، فتحسنت صحة الإبن وأنقذ. ذلك كله ما ترويه النساء بعضها لبعض في بيتنا. فكيف لا تتألم الأم وكيف لا تقلق طوال حياتها مادامت حياة أطفالها الذين ترتبط بهم ارتباطًا حيوانيًا رهنًا بنصيحة يزجيها إيفان زارهاروفتش متى استدعيَّ في اللحظة المناسبة؟ إن ما سيقوله ايفان زاهاروفتش لا يعرفه أحد، ولا يعرفه هو نفسه، وهو يدرك أنه لا يعرف شيئًا، وأنه لا يستطيع أن يساعد في شيء، ولكنه يدبر أمره بطريقة من الطرق حتى يستمر الناس على الإعتقاد بقدرته الجبارة. لو كانت المرأة حيوانًا تمامًا لما عانت هذا العذاب كله، ولو كانت انسانًا تمامًا لآمنت باللّٰه وقالت لنفسها ما يقوله المؤمنون لأنفسهم: "اللّٰه وهبه لي، وهو الذي يسترد إليه وديعته فلتكن مشيئة اللّٰه!.

هكذا كانت الحياة مع الأطفال لا فرحًا بل عذابًا، عذابًا لامرأتي وعذابا لي. كيف السبيل إلى الخلاص من هذا الألم؟ كانت امرأتي تتألم في غير انقطاع. كان يتفق لنا أن نهدأ بعد أزمة من أزمات الغيرة، أو بعد مشاجرة من المشاجرات، فترغب عندئذ في أن نعيش، وأن نقرأ، وأن نفكر، وشرع في تحقيق هذه الرغبة، ولكن ها هي ذي فاشا تقيء، أو ها هي ذي ماشا ملونة الغائط بالدم، أو هذا هو أندريوشا بثر جلده...

لا لا، انتهى كل شيء، وليس إلى الحياة من سبيل. إلى أين يركض؟ عن أي طبيب نبحث؟ كيف نعزل المريض؟ وها نحن أولاء نبدأ تعقيم الملابس، وقياس الحرارة، وتجريع الأدوية، واستشارة الأطباء. فما نكاد ننتهي من ذلك حتى يقع شيء آخر. إن الحياة العائلية المطردة المستقرة لا وجود لها. كان هنالك، كما قلت، كفاح ضد الأخطار، الواقعية والوهمية على السواء. والأمر على هذا النحو في أكثر الأسر الآن. ولقد كان في أسرتنا حادًّا بوجهٍ خاص، لأن امراتي كانت سريعة التصديق، وكانت تحب الأطفال.

وهكذا لم يكن وجود الأطفال يصلح حياتنا، بل كان يفسدها ويسممها، أضف إلى ذلك أن الأولاد كانوا فرصة جديدة لقيام المشاجرات بيني وبين زوجتي. فمنذ أنجبنا أطفالًا أصبح هؤلاء الأطفال وسيلة من وسائل الخلاف وموضوعًا من موضوعات الخلاف، وكان هذا يزداد كلما تقدموا في السن. والحق أنهم لم يكونوا موضوعًا من موضوعات الخلاف فحسب، بل كانوا كذلك أداة من الأدوات التي كنا نستعملها فيما يقوم بيننا من صراع، فكأننا كنا نقتتل بواسطة الأولاد. كان لكل منا واحد يؤثره على غيره أداةً للشجار. كانت فاشا هي التي أقاتل أنا بواسطتها، وكانت ليزا هي التي تقاتل امرأتي بواسطتها. أضف الى ذلك أن أولادنا حين كبروا واتضحت معالم طباعهم، أصبحوا حلفاء يحاول كل منا أن يجتذبهم إليه وأن يضمهم إلى معسكره. وكانوا يتألمون ألمًا رهيبًا - يالهم من تعساء - ولكننا نحن، أنا وزوجتي، في هذه الحرب الدائمة التي تدور رحاها بيننا، لم يكن يتسع وقتنا للتفكير في هذا الألم الذي نسببه لهم. كانت البنت الصغيرة هي حليفتي، أما إمرأتي فكانت تؤثر أكبر أطفالنا من البنين حليفًا لها. ولا أكتمك أن إبني هذا كان يثير في نفسي الحنق والبغض في كثير من الأحيان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

- هكذا كنا نعيش. وازدادت العداوة في علاقاتنا شيئًا بعد شيء. وأخيرًا لم يعد الخلاف هو الذي يولد العدواة، بل أصبحت هذه العداوة هي التي تولد الخلاف: فكنت أخالف امرأتي مقدمًا في كل رأي تراه مهما يكن هذا الرأي، وكذلك كانت تفعل هي أيضًا.

وأصبح أمرًا مقررًا، منذ السنة الرابعة، أننا لا نستطيع أن نتفاهم، ولا أن نعيش معًا على علاقات طيبة. وأصبحنا لا نحاول أن نتفق بالشرح والاقناع، وأصبح كل منا لا يحيد عن مواقفه في أبسط الأمور، وخاصة ما اتصل منها بالأولاد، إني أفكر في هذا الأمر الآن، أدرك أن الأراء التي كنت أدافع عنها لم أكن في حقيقة الأمر أحرص عليها حرص من لا يستطيع أن يضحي بها، ولكن كان يكفي أن تكون آراء زوجتي مخالفة لها حتى أتشبث بها، لأن التنازل عنها يعني الرضوخ والاستسلام، وهذا ما لم أكن أرتضيه، وكذلك كانت تفعل هي أيضًا، لعلها كانت تعتقد أنها على حق دائمًا، وكنت أنا في نظر نفسي المقدسة بعينها، فكنا حين نجتمع نكاد نصمت دائمًا، أو نقتصر على أحاديث أقسم أن الحيوانات قادرة على أن تدير بينها: "كم الساعة الآن؟ آن لنا أن ننام؟ ماذا نتغدى اليوم؟ إلى أين نذهب؟ ماذا في الجرائد من أخبار؟ يجب أن نستدعي الطبيب. ماشا تشكو من ألم في حلقها..

فما إن نتجاوز في أحاديثنا هذه الدائرة الضيقة إلى أبعد حدود حتى يبدأ الحنق. فكانت المشاجرات والكلمات القارصة التي تعبر عن البغض تنفجر بصدد أمور لا يمكن أن يكون لها أي شأن خطير، لا بالنسبة إلى امرأتي ولا بالنسبة إليّ أنا: فنجان قهوة، غطاء مائدة، عربة... ومهما يكن من أمر فلقد كنت أحس نحو امرأتي ببغض رهيب يغلي في نفسي غليانًا. كنت في بعض الأحيان أنظر كيف تصب الشاي، وكيف تهز قدمها، وكيف تقرب الملعقة من فمها، وكيف تحدث صوتًا حين تشرب، فأكرهها من أجل ذلك، كأنها تقترف عملًا من أسوأ الأعمال. ولم أكن ألاحظ أيامئذ أن فترات البغض كانت تقع مطردة، وتتناسب مع فترات ما كنا نسميه حبًا: فترة حب - فترة بغض، فترة حب عنيف - فترة بغض طويل، فترة حب معتدل - فترة بغض قصير. وما كنا ندرك أيامئذ أن هذا الحب وهذا البغض هما تلك العاطفة الحيوانية الواحدة نفسها من جانبين. إن الحياة يمكن أن تصبح فظيعة ولو استطعنا أن ندرك الموقف. ولكننا كنا لا ندركه ولا نراه. إن الخلاص الذي يمكن أن يحققه لنفسه إنسان لا يعيش حياة مطردة، وكذلك العذاب الذي يعانيه، إنما سره أنه يستطيع أن يتعامى فما يدرك الكارثة التي هو فيها فكذلك كنا نفعل. كانت تحاول هي أن تذهل نفسها بمشاغل مستعجلة تقتضي جهدًا: كأعمال المنزل والأثاث والزينة وملابس الأطفال وتعليمهم وصحتهم. وكنت أنا أذهل عن نفسي بمشاغلي أيضًا: الشراب والخدمة والصيد والقمار. كنا في شغل دائم، وكنا نحس أننا كلما قلت أوقات الفراغ كان في وسع كل منا أن يزداد سوء معاملته للآخر. كنت أخاطبها بيني وبين نفسي قائلًا: "من السهل عليك أن تثيري المشاكل... لقد عذبتني طوال الليل مع أن إجتماعًا إداريًا ينتظرني في الغداة"، وكانت تخاطبني بدورها، لا بينها وبين نفسها

فحسب، بل جهارًا أيضًا قائلة: "أنت ناعم البال لا يهمك شيء، أما أنا فلم أنم الليل كله بسبب الولد". إن جميع النظريات الجديدة التي تتحدث عن التنويم المغناطيسي والأمراض العقلية والهستيريا ليست سخفًا فحسب، بل هي أيضًا شيء مضر مؤذي. لا شك أن شاركو لو وقف على أمرنا لقال عن امرأتي أنها كانت مصابة بالهيستيريا، ولقال عني أني إنسان شاذ، ولعله كان يحاول أن يشفينا، مع أنه ليس بنا مرض يشفينا منه.

هكذا كنا نعيش إذًا في ضباب دائم لا ندرك الوضع الذي نحن فيه. ولو لم يقع ما وقع، ولو عشت على تلك الحال إلى سن الشيخوخة، لقدرت في تلك السن أنني عشت حياة كحياة سائر الناس، لا هي بالطيبة كثيرًا، ولا هي بالسيئة كثيرًا. ولَمَا فهمت تلك الهوة من الشقاء التي كنت أتردى فيها، ولَمَا فهمت ذلك الجو من الكذب الفظيع الذي كنت أتقلب فيه.

كنا سجينين قد شُدَّا بوثاق واحد، يكره كل منهما الآخر، ويسمم كل منهما حياة صاحبه، ويحاول أن لا يرى ذلك. كنت لا أعرف بعد أن تسعة وتسعين في المائة من الأزواج يعيشون في هذا الجحيم نفسه الذي كنت أعيش فيه، وأن الأمور لا يمكن أن تجري غير هذا المجرى. كنت في ذلك الحين أجهل هذا عن غيري وعن نفسي على حد سواء.

أمر غريب.. ما أعجب الالتقاءات التي يمكن أن تقع في حياة مطردة وغير مطردة، في اللحظة التي يصبح فيها الأبوان لا يطيقان الحياة المشتركة يصبح النزول إلى المدنية ضرورة لا بد منها لتربية الأطفال.

قال صاحبي هذا وسكت، وضحك مرتين ضحكته الساخرة تلك التي تشبه أن تكون الآن شهقات مخنوقة. وكنا نقترب من المحطة. قال:

- كم الساعة الآن؟

فنظرت فإذا هي الساعة الثانية.

وسألني:

- أأنت تعب؟

- لا ولكنك أن تعب.

- اسمح لي. سوف أتنزه قليلًا، وأشرب شيئًا من الماء. قال ذلك ثم اجتاز العربة مترنحًا. فلما عاد من الباب الآخر كنت جالسًا وحدي، مستغرقًا في تأمل ما قصه عليّ، فلم ألاحظ عودته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

18

استأنف قصته يقول:

- نعم، إنني أتحمس دائمًا، لقد فكرت طويلًا، فغيرت رأيي في أمور كثيرة، وأريد أن أقول هذا كله.

بدأنا حياتنا في المدينة. إن الإنسان يمكن أن يعيش في المدينة مائة سنة دون أن يلاحظ أنه قد مات وتفسخ منذ مدة طويلة. إن المرء في المدينة لا يتسع وقته لأن يحلل نفسه، فهو في شغل دائم. فالأعمال والواجبات الإجتماعية والصحة والفنون وتطبيب الأولاد وتربيتهم تملأ وقته كله. يجب عليه أن يستقبل فلانًا أو فلانًا من الناس، أو يجب عليه أن يرد له زيارته. يجب أن يرى هذه أو تلك، ويجب أن يستمع إلى هذا أو ذاك. إن المدينة تضم في كل لحظة شخصًا أو شخصين أو ثلاثة من مشاهير الرجال لا يمكن أن يفوت المرء على نفسه رؤيتهم لأي حجة من الحجج. وتارة يجب عليه أن يعالج نفسه من مرض ألمَّ به، وتارة يجب عليه أن يعالج هذا أو ذاك من أولاده. وينبغي له أن يتفق مع معلمين يتولون تدريس أبنائه، وأن يتفق مع معدين، وأن يتفق مع مربية، والحياة تمضي أثناء ذلك فارغة كل الفراغ.

وهكذا كنا، ونحن نحيا هذه الحياة في المدينة، نشعر من معيشتنا تحت سقف واحد بألم أقل. أضف إلى ذلك أننا قد شغلنا في الأوقات الأولى بعمل يفتن المرء عن نفسه: هو تنظيم حياتنا في مدينة جديدة، في منزل جديد، والانتقال من المدينة إلى الريف ومن الريف الى المدينة.

عشنا على هذه الحال شتاءين، ووقع أثناء ذلك حادث تافه لا ينتبه إليه المرء، حادث يبدو أنه ما كان ينبغي أن يعد شيئًا، ولكنه هو السبب فيما حدث.

كانت زوجتي مريضة. ومنعها الأطباء من الحمل، وأشاروا عليها بالوسيلة التي يجب أن تستعملها لمنع الحمل. وقد كرهت هذا أشد الكره، وكافحت لأحول دونه، ولكنها عندت وأصرت فما وسعني إلا أن أخضع لمشيئتها، وبذلك زال المبرر الوحيد الذي يسوغ هذه المعيشة التي نعيشها، معيشة الخنازير: فزادت حياتنا دمامة على دمامة.

إن الفلاح أو العامل في حاجة إلى أن يكون له أطفال، رغم ما يجد من عناء في اطعامهم، وبذلك يكون لعلاقاته الزوجية ما يبررها أما نحن فاذا أنجبنا عددًا من الأطفال، أصبح يجب علينا أن لا ننجب أطفالًا آخرين، لأنهم هم ونفقات ومزيد من التعب وشركاء في الإرث. ألا إن حياة الخنازير التي نعيشها ليس لها ما يسوغها، إننا نتخلص من الأطفال بوسائل مصطنعة أو نعدهم شقاء وثمرة من ثمرات قلة التبصر، وهذا أنكى وأفدح.

إننا لا نبحث عن مبرر. إننا نبلغ من الإنحطاط إلى الدرك الأسفل أننا لانرى ضرورة للبحث عن مبرر.

إن الجزء الأكبر من عالمنا المتحضر يستسلم لهذا العهر دون أن يخامر وجدانه أي ألم.

لا محل عندنا لوخز الضمير، لا محل عندنا لألم الشعور، لأننا ليس لنا شعور، اللهم إلا الشعور برأي الناس وقانون الجزاء، إن صح هذا التعبير. ورأي الناس وقانون الجزاء لا يخترقان هنا، لذلك لا نشعر بأي خجل أو عار: أن كل الناس يفعلون هذا، ومن بينهم ماريا بافلونا وإيفان زاهاروفتش. وفيم نكثر الأشياء، وفيم نحرم أنفسنا من امكان التنقل بين الصالونات ومشاركة المجتمع الراقي حياته!

وما ينبغي أيضًا أن نشعر بأننا مذنبون أمام قانون الجزاء، ولا أن نخاف منه. إن البغايا والنساء اللواتي يتردد إليهن الجنود يرمين أطفالهن في الغدران أو الآبار: فيجب أن يعاقبن بالسجن طبعًا، أما نحن فنفعل كل شيء في حينه كما أيضا ينبغي أن يفعل.

وهكذا عشنا سنتين. وأخذت أدوية أولئك المجرمين - الأطباء - تفعل فعلها: ازدادت زوجتي جمالًا وفتنة، وتفتحت تفتح الأزهار الرائعة في مطالع الصيف. وشعرت هي بذلك وأخذت تعنى بنفسها. واكتسبت جمالًا محرضًا مثيرًا يقلق الرجال. إن لها كل القوة التي تتدفق في امرأة في الثلاثين، لا تلد، وتتناول جيد الطعام، وتعيش في اهتياج. أصبح منظرها يثير القلق. أصبحت إذا مرت أمام الرجال تخطف أبصارهم. أصبحت كحصان يأكل جيد الطعام، أزيلت عنه ألجمته فجأة بعد أن ظل خلال مدة طويلة من غير حركة. لم يبق لامرأتي أي لجام، شأنها في ذلك شأن تسع وتسعين من نسائنا. وأحسست أنا بهذا، وخفت منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

نهض صاحبي فجأة وجلس قرب النافذة. ثم قال وهو ينظر من النافذة:

- معذرة.

وصمت نحو ثلاث دقائق. ثم زفر زفرةً أليمة، وعاد فجلس أمامي. لقد تغير وجهه، وأصبحت عيناه تثيران الشفقة، وتخددت شفتاه بابتسامة غريبة.

"إنني متعب قليلًا، ولكنني سأستمر في رواية قصتي مما يزال في الوقت متسع. إن الفجر لم ينبلج بعد".

وأردف يتم قصته بعد أن أشعل سيجارة:

"نعم، منذ أن انقطعت زوجتي عن الحمل سمنت، وزال عنها ذلك المرض - أعني العذاب المتصل بسبب الأطفال -. الحق أن ذلك المرض لم يَزُل زوالًا تمامًا. ولكن امرأتي كانت كمن استيقظ بعد سكر، فاسترد وعيه، ورأى لأول مرة أن ثمة عالمًا خلقه الله، عالمًا مترعًا بالأفراح، عالمًا كانت لا تعرف كيف تعيش فيه، عالمًا نسيته، عالمًا كانت لا تفهمه البتة. لا تدعي هذا العالم يفلت منك! إن المرء لا يتدارك الوقت الذي فات!. هذا ما خيل إليَّ أنها تقوله لنفسها، أو أنها تحسه، ولم يكن يمكن أن تجري الأمور غير هذا المجرى. لقد نشأت على الإقناع بأن العالم ليس فيه إلا شيء واحد يستحق الإهتمام، هو: الحب، فتزوجت، وعرفت صورة من صور هذا الحب لم تكن هي الصورة التي توقعها، بل كانت كثيرًا من خيبة الظن والآلام وعذابًا لم يكن في الحسبان هو العذاب الذي يولده لها عدة أطفال. وقد أرهقها هذا العذاب. ثم ها هي ذي تعلم، بفضل الأطباء الذين لا يضنون بمد يد المعونة إلى أحد، أن في وسعها أن تستغني عن الأولاد. ففرحت بذلك وجربته، وأحست أنها تعيش مرة أخرى للشيء الوحيد الذي كانت تعرفه، ألا وهو الحب. غير أن حب زوجها، هذا الحب الذي تلوثه الغيرة وأنواع من الخبث والسوء، أصبح لا يشفي غليلها. فكانت تحلم بحب آخر نقي جديد، أو هذا ما تصورته أنا على كل حال. فكان يبدو لي أنها تنتظر شيئًا ما. رأيت هذا وقلقت منه. وكان يتفق في كثير من الأحيان، وهي تخاطبني بواسطة أناس تتحدث معهم أي وهي توجه إليّ كلامها، أن تعبر عن رأيها ببراعة وحذق، دون أن يخطر على بالها أبدًا أنها كانت منذ ساعة تقول لي كلامًا هو نقيض الرأي الذي تبديه الآن، فكانت تقول بلهجة شبه جادة أن ما تحيط به الأم أطفالها من ألوان الرعاية كذب، وأن إنفاق المرء حياته كلها في سبيل أطفاله أمرٌ لا يجدر، وأن للصبا حقوقًا، وأن على الإنسان أن يستفيد من حياته. وأصبحت زوجتي أقل اهتمامًا بالأولاد، وأصبحت لا تحزن لشأنهم كما كانت تحزن في الماضي. وغدت تعنى بهندامها وبملذاتها وباستكمال أسباب فتنتها أكثر مما كانت تعنى بذلك كله من قبل، مخفية ذلك حتى عن نفسها. وعادت تعزف على البيانو بحماسة شديدة، وذلك أمر كانت قد هجرته هجرًا تامًا. إن كل ما حدث قد بدأ من هنا...".

قال صاحبي هذا وتحول ببصره مرة أخرى نحو النافذة، ولكنه لم يلبث أن عاد يكمل حديثه وهو يبذل جهدًا واضحًا كل الوضوح:

"نعم، ظهر ذلك الرجل...".

ثم تردد وضحك ضحكته الساخرة تلك مرتين.

لاحظت أنه يشق عليه أن يسمي ذلك الرجل، وأن يتذكره، وأن يتحدث عنه. ولكنه بذل جهدًا جديدًا، فإذا هو يقول بعزم وإصرار كمن حطم الحاجز الذي كان يمنعه من متابعة الحديث:

"في نظري، في رأيي، كان ذلك الرجل إنسانًا سيئًا، لا أقول هذا بسبب الدور الذي لعبه في حياتي، بل لأنه كان كذلك حقًا. ومهما يكن من أمر، فإن كونه سيئًا يؤكد مرة أخرى أن زوجتي كانت غير مسئولة. ولو لم يكن هو، لكان غيره، وقد وقع ما كان يجب أن يقع!".

قال صاحبي ذلك، وسكت من جديد. ثم استأنف:

"نعم، لقد كان موسيقيًا، عازفًا على الكمان لم يكن يحترف العزف، وإنما كان وسطًا بين الاحتراف والهواية. كان أبوه رجلًا ثريًا من أصحاب القصور، وكان جارًا لنا. ولكنه دمر ثروته، فكان لا بد لأولاده - وهم ثلاثة - من أن يجدوا لأنفسهم مخرجًا. وقد أرسل أصغرهم إلى إشبينته بباريز، فانتمى هنالك إلى الكونستر فاتوار، وخرج منه عازفًا على الكمان، وأقام حفلات موسيقي. كان رجلًا...".

لاحظت أن محدثي أراد أن يصفه بوصفٍ سيء، ولكنه ما لبث أن لجم لسانه، وأردف يقول:

"لا أعرف كيف عاش، ولكنني أعرف أنه ظهر ذلك العام في روسيا، وجاء إليَّ يزورني. إن له عينين كاللوز، وشفتين كالقرمز مبتسمتين، وشاربين لامعين. وكانت تسريحة شعره على آخر موضة. إن وجهه من الوجوه ذات الجمال العامي، التي تقول فيها النساء: لا بأس بها.

وكان ضعيف البنية، ولكن على غير تشوه، وكان بارز الردفين كالنساء. وكان يميل إلى رفع الكلفة، ولكن على غير غلظة، فكان مستعدًا للتوقف عند أيسر مقاومة. وكانت له مهابة في المظهر: إنه ينتعل حذاء ذا أزرار، ويعقد على عنقه ربطة زاهية الألوان على عادة الأجانب الذين أقاموا في باريز ردحًا من الزمن، وكان هذا كله يؤثر في النساء، لجدته، تأثيرًا خاصًا. وكانت حركاته ظاهرة المرح ذات زهو. وكان أسلوبه في الحديث أسلوبًا خاصًا، فهو أنصاف كلمات، وعبارات لا تنتهي، كأنه يفترض أنك تعرف ما يريد أن يقوله، وتستطيع أن تكمله من عندك. هذا الرجل كان بموسيقاه هو السبب في كل ما وقع. لقد أظهروا الأمر كله، أثناء المحاكمة، على أنه جريمة غيرة. والحقيقة أنه لم يكن كذلك تمامًا. وقرر القضاة أنني رجل خانته امرأته وأنني قتلت زوجتي دفاعًا عن شرفي الذي لوث (هذا ما قيل). وبسبب ذلك برأتني المحكمة. وقد حاولت أثناء المحاكمة أن أشرح الأمر، ولكنهم اعتقدوا أنني أحاول أن أرد لزوجتي شرفها.

إن علاقتها بهذا الموسيقي، كائنة ما كانت، ليس لها من شأن لا بالنسبة إليَّ ولا بالنسبة إليها. وليس لها من معنى إلا فيما حدثتك عنه الآن، أعني ما اتصفت به

حياتي من أنها أشبه بحياة خنزير. لقد وقع كل ما وقع لأنه كان بيننا تلك الهوة الفظيعة التي وصفتها لك، ذلك البغض الشديد المتوتر المتبادل الذي كان عند أول فرصة كافيًا لإحداث أزمة. لقد أصبحت مشاجراتنا، آخر الأمر، شيئًا فظيعًا. ومما يبعث على أشد الدهشة أن هذه المشاجرات كانت تعقبها رغبة عنيفة حيوانية.

لو لم يظهر هذا الرجل في حياتنا، لجاء شخص آخر. ولو لم تكن تلك الغيرة هي الحجة والذريعة لوجدنا حجة أخرى وذريعة أخرى. وما أزال أصر على الإعتقاد بأن الذين يعيشون كما عشت، يجب عليهم إما أن يستسلموا للفحش، وإما أن ينفصلوا عن زوجاتهم، أو أن يقتلوا أنفسهم أو زوجاتهم كما فعلت أنا. وإذا أفلت أحد من هذا، كان ذلك إستثناء ًنادرًا. إنني قبل أن أفعل ما فعلت هممت عدة مرات أن أنتحر، كما أن زوجتي حاولت أن تتجرع السم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

- نعم، كانت هذه هي حالنا قبل وقوع الحادث. وكنا نعيش حياة هادئة في ظاهرها، ولم يكن ثمة ما يوجب قطع هذه الهدنة. وفي ذات يوم بدأت حديثًا مع امرأتي في موضوع كلب حصل على نيشان في المعرض. فما كان من امرأتي إلا أن قالت على الفور: لم يكن ذلك نيشانًا بل دبلومًا. فبدأت المشاجرة. وأخذنا ننتقل من موضع إلى آخر، وأخذ كل منا يلوم صاحبه: "هذا معروف، أنت تتصرف دائمًا هكذا"، "لقد قلت ذلك"، "بل لم أقله، وإلا كان معنى هذا أنني كاذب". إن المرء يحس باقتراب المعركة الرهيبة، فيتمنى لو ينتحر أو يُقتل. وأنا أحس أن المعركة بدأت، وأخاف ذلك خوفي من النار، وأحب أن ألجم لساني، ولكن كياني كله يكون قد غلى كرهًا وبغضًا. وتكون هي في مثل هذه الحالة، بل في حالة أسوأ منها أيضًا، فتعكس معنى كل كلمة أقولها، وتحيلها كلامًا كاذبًا. إن كل كلمة من كلماتها تقطر سمًّا، تختار أفحش القول لتجرحني وتؤذيني. واشتد الشجار وعنف. وصرخت ملء صوتي: "اخرسي"، أو قلت شيئًا من هذا القبيل.

فخرجت من الغرفة سريعة، وهرعت إلى حجرة الأطفال، فتشبثتُ بذراعها أمنعها من الخروج لأتم الجملة التي بدأت بها رغبة في أن أبرهن لها أنني على حق، فتظاهرت بأنني آلمت ذراعها، فصرخت: "يا أولاد، يا أولاد، أبوكم يضربني!" فصرخت بدوري: "لا تكذبي"، فاستأنفت صياحها: "ليست هذه أول مرة". وهرع الأولاد إلى لقائها، فأخذت تهدئهم، فقلت: "كفى تمثيلًا!"، فأجابت: "كل شيء في ظنك تظاهر. إن في وسعك أن تقتل إنسانًا ثم تقول إنه يتظاهر بالموت. الآن فهمت. إنك لا تريد غير هذا!، فصرخت: "يا ليتك تخرسين!"

أذكر أنني شعرت من هذا الكلام الفظيع، أنا نفسي، بذعر. كنت لا أتصور أبدًا أن في وسعي أن أنطق بهذه الألفاظ البشعة الفظة، وما زلت أستغرب كيف ندت هذه الكلمات عن شفتي. وبعد أن صحت ذلك الصياح، مضيت مسرعًا إلى غرفة عملي، فجلست ودخنت سيجارة. فسمعت من هناك أصوات خروجها إلى المدخل واستعدادها لترك البيت، فسألتها: "إلى أين تذهبين"، فلم تجب فقلت لها بيني وبين نفسي: "شيطان يشيلك ([5])" ثم عدت إلى غرفة عملي، فاستلقيت، وأخذت أدخن من جديد. وخطرت ببالي ألف طريقة وطريقة للانتقام، أو للتخلص منها، أو لتسوية الأمر كأنه لم يقع شيء. فكرت في هذا كله، وكنت أدخن بلا انقطاع. راودتني فكرة ترك زوجتي، والسفر إلى أمريكا، حتى لقد أخذت أحلم أنني بذلك أتخلص منها، وأن هذا سيكون شيئًا جميلًا، وأنني سأصاحب هنالك امرأة جميلة مختلفة عنها كل الاختلاف. وقلت لنفسي: "أو أتحرر منها بالموت أو بالطلاق" وأخذت أفكر في السبيل إلى تحقيق هذا. ثم لاحظت أن عقلي اضطرب، وأنني لا أفكر فيما يجب أن أفكر فيه، فأمعنت في التدخين حتى تصبح نظرتي إلى الأمور أوضح.

غير أن الحياة في بيت من البيوت لا تقف. وهذه هي المربية تأتي فتسألني: "أين السيدة، ومتى تعود؟"، وهذا هو الخادم يسألني: "هل يجب تحضير الشاي". وذهبت إلى قاعة الطعام. إن الأولاد، وكبارهم خاصة، وليزا بوجه أخص (إن ليزا أصبحت

تفهم الأمور) ينظرون إليّ متسائلين مستنكرين. وأخذنا نشرب الشاي، وفرغنا من تناول الشاي، ولم تعد زوجتي. وانقضت السهرة كلها على هذه الحال. إنها ليست معنا. وتنازعتني عاطفتان مختلفتان أولاهما الحنق منها والكره لها بسبب هذه الآلام التي يولدها غيابها لنا، أنا والأولاد، وهي آلام ستنتهي بانتهاء غيابها على كل حال، والثانية هي الخوف من أن لا تعود ومن أن تحدث لنفسها أذى. وشعرت أنني على استعداد لأن أمضي باحثًا عنها. ولكن أين أبحث عنها؟ عند أختها؟ ألا إنها لحماقة أن أذهب إلى هناك وأن أسأل، سامحها الله!، هل تريد أن تؤلمنا وهل تتألم في حقيقة الأمر، لا تنتظر غير هذا. وإذا ذهبت، فسيكون الأمر في المرة القادمة أدهى. ولكن ألا يمكن أن لا تكون عند أختها؟ ألا يجوز أنها تريد أن تنتحر، أو أنها انتحرت وانتهى الأمر؟... ودقت الساعة الحادية عشرة... وانتصف الليل... ولم تعد. لم أمض إلى حجرة النوم. إن من الحماقة أن أبقى فيها وحدي، أنتظر ولا أنام. وأردت أن أفعل شيئًا أن أكتب رسالة، أن أقرأ... ولكنني لم أستطع. وبقيت وحدي في حجرة عملي أتألم، وأحنق. وأنتظر. ودقت الساعة الثالثة، فالرابعة... ولم تعد. ونمت عند الفجر. فلما استيقظت كانت لا تزال غائبة.

إن الحياة في البيت مستمرة على عادتها، ولكن جميع من في البيت ينظرون إليّ نظرة سائلة عاتبة لائمة، وفي ظنهم أنني السبب في كل ما وقع. أما أنا فما يزال يتنازعني شعوران: ذلك البغض لها، وذلك القلق عليها.

وفي الساعة الحادية عشرة من الصباح وصلت أختها رسولًا أو سفيرًا. ودار الحديث الذي يدور في مثل هذه الأحوال: "إن حالتها فظيعة، فما الذي حدث؟ لا شيء، لم يحدث شيء البتة... وأجبت بأن طبع زوجتي طبعٌ صعب، وأنني لم أفعل شيئًا قط. فقالت أختها: "ولكن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذه الحال"، قلت: "هذا شأنها، لا شأني. لن أقوم أنا بالخطوة الأولى. فإذا شاءت الانفصال، انفصلنا".

ومضت أخت زوجتي دون أن تنجح في المهمة التي جاءت من أجلها. لقد أظهرتُ كثيرًا من قوة العزم حين قلتُ لها إني لن أقوم بالخطوة الأولى، ولكن ما إن مضت فرأيت أطفالي على تلك الحالة من الأسى والخوف حتى تقطر قلبي فأحسست أنني مستعد للعدول عن قراري. إنه ليسعدني أن أقوم بالخطوة الأولى، ولكنني لا أعرف كيف. وأخذت أذهب وأجيء من جديد، وأخذت أدخن، وشربت عند الغداء فودكا وخمرًا، فوصلت إلى ما أريد، على غير شعور مني: أصبحت لا أرى ما في وضعي من حماقة وجبن.

فلما حانت الساعة الثالثة وصلت زوجتي. ولم تقل شيئًا حين لقيتني. فتخيلت أنها هدأت، وأخذت أشرح لها كيف أن كلامهما كان تحديًا لي. فما كان منها إلا أن ظلت على قساوة وجهها وتعب مظهرها، فقالت إنها لم تجيء لتسمع شروحًا، بل جاءت لتأخذ الأولاد، لأنها أصبحت لا تستطيع أن تعيش معي. فأجبتها بأن الذنب لم يكن ذنبي، وأنها هي التي أخرجتني عن طوري وأفقدتني سيطرتي على نفسي. فنظرت إليَّ نظرة قاسية فخمة، ثم قالت: "لا تتكلم، فإنك ستندم على ما يمكن أن تقوله"، فأجبتها بأنني أحتقر التمثيليات الهزلية! فأخذت تصيح بكلام لم أفهمه، وهرعت إلى غرفتها. وسمعت صوت المفتاح يدور في القفل لقد أقفلت الباب عليها. فأسرعت

وراءها، وطرقت الباب فلم تجب، فعدت حانقًا مغتاظًا. وبعد نصف ساعة جاءتني ليزا باكية. ماذا؟ ما الذي حدث؟. أمي لا تجيب.. فذهبنا معًا إلى غرفتها، ودفعت الباب بكل ما أوتيت من قوة، وكان مزلاجه غير محكم الإغلاق، فانفتح الباب على مصراعيه. اقتربتُ من السرير. إن زوجتي راقدة على السرير بثيابها وحذاءيها العاليين. وعلى كرسي قرب السرير رأيت زجاجة أفيون خالية. فأخذنا ننعشها إلى أن استيقظت. وكانت دموع ثم كانت مصالحة. أو قل إنها لم تكن مصالحة، ذلك أنه قد بقي في نفس كل منا ذلك الحقد الذي يشعر به، حتى لقد أضيف إليه الآن الحنق الذي ولّده فيه ما سببته المشاجرة الأخيرة من أذى ينسبه كل منا إلى الآخر. ولكن لابد من إنهاء هذا الأمر على نحوٍ ما، واستمرت حياتنا على تلك الحال. فكانت تقوم بيننا مشاجرات كتلك المشاجرة، بل أفدح منها، كل أسبوع تارة، وكل شهر أو كل يوم تارة أخرى. لم يختلف شيء. وفي ذات مرة طلبت جواز سفري إلى الخارج، فاستمرت المشاجرة يومين، ثم تفاهمنا نصف تفاهم، وتصالحنا نصف تصالح، فلم أسافر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

على هذه الحال كانت علاقاتنا حين ظهر ذلك الرجل. وصل إلى موسكو - واسمه تروها تشفسكي - وجاء إلى بيتي يزورني. كان ذلك في الصباح واستقبلته. كنا في الماضي تتخاطب بصيغة الفرد. فحاول أن يعود إلى صيغته هذه في حديثنا ذلك الصباح، ولكنني صارحته منذ كلماتي الأولى أنني أحرص على صيغة الجمع فيما يدور بيننا من كلام. فلم يلبث أن استجاب لدعوتي. ولقد نفرت منه منذ اللحظة الأولى. ولكن الشيء الغريب أن قوة قاهرة جذبتني إليه، شدتني إليه، منعتني من رده، من ابعاده، بل حملتني على الإقتراب منه كان يمكنني بسهولة أن أخاطبه بلهجة باردة، وأن أودعه دون أن أقدمه إلى زوجتي. ولكنني لم أفعل ذلك، بل حدثته عن غزفه، كأنما على قصد، وذكرت له أن إشاعة تسري بين الناس مفادها أنه هجر الكمان. فأجاب بأن الإشاعة غير صحيحة، وأنه في هذه الأيام يعزف أكثر مما كان يعزف في أي وقت مضى. وتذكر أنني كنت أعزف في الماضي. فقلت له أنني انقطعت عن العزف، وأن زوجتي هي التي تجيد العزف كثيرًا. شيء غريب! إن علاقاتي به منذ اليوم الأول، منذ الساعة الأولى، كانت هي العلاقات التي لا يمكن أن تكون إلا بعد كل الذي وقع. كان في علاقاتنا شيء من التوتر، فكنت أرقب كل لفظ يقوله أحدنا، وكل تعبير يستعمله، وأضفي عليه شأنًا وخطرًا.

وقدمت صاحبي إلى امرأتي. فما لبثا أن تحدثا في شئون الموسيقى، وعرض عليها أن يعزف معها. وكانت أمرأتي، على شأنها في هذه الأوقات الأخيرة، رشيقة جدًّا، فاتنة جدًّا، ذات جمال يحدث في النفس القلق. وكان واضحًا أنها أعجبته منذ اللحظة الأولى. وقد سرها أن تستطيع العزف بمصاحبة كمان، وذلك أمر تحبه كثيرًا، حتى أنها أخذت تثني ثناءً شديدًا على الخدمات التي يمكن أن يؤديها في هذا المجال عازف من عازفي الأوبرا على الكمان، وقد عبر وجهها عن فرحها الشديد بهذا العرض الذي قدمه لها صاحبي، ولكنها ما إن نظرت إليّ حتى فهمت مشاعري، فتغير تعبير وجهها، وعندئذ قامت بيننا جميعًا مسرحية أكاذيب متبادلة: كنت أنا أبتسم إبتسامةً رقيقةً، وأتظاهر بأنني مسرور أشد السرور. وكان هو، إذ ينظر إلى امرأتي كما ينظر إلى النساء الجميلات جميع الرجال الذين لا خلاق لهم، يتظاهر بأنه لا يهتم إلا بالحديث، مع أن الحديث كان في حقيقة الأمر لا يعينه في قليل ولا كثير. وكانت هي تحاول أن تظهر بمظهر من لا يحفل بالأمر، غير أن ما كان يظهر في وجهي المتكلف الإبتسام من آيات الغيرة، وما كان يسدده إليها تروها تشفسكي من نظرات شبقة فاسقة، كان يثير في نفسها اضطرابًا ظاهرًا. ولقد رأيت عينيهما منذ هذا اللقاء الأول تلتمعان بوميض خاص حتى لقد نشأ بينهما، ربما بسبب غيرتي، نوع من تيار كهربائي ولد تشابهًا بينهما في النظرة، والبسمات. كان إذا احمرت احمرَّ، وإذا ابتسمت ابتسمَّ. وتحدثنا عن الموسيقى، وباريس، وعن أمور تافهة. ونهض ليذهب، مبتسمًا، مسندًا قبعته على خصره المرتعش، ونظر إليَّ وإلى امرأتي، كأنه ينتظر ما ستفعله. إني أتذكر تلك الدقيقة خاصة، لأنني كنت أستطيع في تلك اللحظة ألا أدعوه إلى زيارتنا بعد الآن، ولو فعلت ذلك لما وقع شيء مما وقع. ولكنني نظرت إليه ونظرت إليها، وقلت له بيني وبين نفسي: "لا تظنن أني

غيور أو أنني خائف منك"، ودعوته أن يجيء إلينا بكمانه ليعزف مع زوجتي. فنظرت إليَّ زوجتي دهشة، واحمرَّ وجهها، وكأنها خافت مني، فأرادت أن ترفض ذلك قائلة إنها لا تجيد العزف إجادةً كافية. وأحنقني رفضها هذا، فزدت في الإلحاح. ما أزال أتذكر الشعور الغريب الذي أحسست به وأنا أنظر إلى سحرها وعنقها الأبيض الذي يتهدل عليه شعرها الأسود المفروق في وسطه، وحين رأيتها تمشي متبخترة كأنها طائر. كنت لا أستطيع أن أخفي عن نفسي أن وجود هذا الرجل يزعجني ويعذبني. فقلت لنفسي: "إن أمر انقطاعه عن المجيء إلينا مرة أخرى رهن بي وحدي. ولكنني إن منعته من المجيء كنت أعترف بأنني خائف منه. قلت "لا، لا، إنني لست بخائف. إن خوفي منه ينزل قيمتي"، فألححت على صاحبي أن يعود، حتى أنني حين صرنا في الممر إلى باب البيت، أصررت عليه، لعلمي بأن امرأتي تسمع كلامي، أن يعود في هذا المساء نفسه مع كمانه. فوعدني بذلك ومضى.

فلما هبط المساء جاء متأبطًا كمانه. وعزف مع زوجتي. لم ينجح العزف في أول الأمر، لأن دفاتر الموسيقى كانت تعوزنا، وكانت امرأتي لا تستطيع العزف بالدفاتر التي عندنا من غير تحضير. إنني أحب الموسيقى كثيرًا، فساعدتهما في تهيئة المسند، وكنت أقلب لزوجتي صفحات الدفتر. وعزفنا لا أدري أية أغنيات، عزفاها صامتةً بلا غناء، وعزفا كذلك لحنًا ألحان موتسارت. كان هو يعزف عزفًا رائعًا. إنه يملك، إلى أقصى درجة، ما يسمى بالإحساس بالموسيقى. ثم أن له ذوقًا مرهفًا رفيعًا لا يتناسب مع خلقه.

بديهي أنه كان في الموسيقى أقوى من زوجتي، ولكنه أثنى على عزفها. إنه يعرف كيف يتصرف. وكان يبدو على زوجتي أنها لا تحفل بغير الموسيقى، فكانت في سلوكها بسيطة طبيعية. أما أنا فكنت أتظاهر بالاهتمام بالموسيقى، ولكن الغيرة كانت تنهش قلبي طوال السهرة.

ومنذ اللحظة التي إلتقتْ فيها عيناهما أدركت أن الحيوان الذي يخبتىء فيهما، رغم جميع مواضعات المجتمع الراقي، قد طرح هذا السؤال: "هل يمكن؟"، وكان الجواب: "طبعًا يمكن!". وقد رأيتُ أن صاحبي كان لا يتوقع أبدًا أن يصادف في زوجتي - هذه السيدة من سيدات موسكو ـ امرأة تبلغ هذا المبلغ من الفتنة والاغراء، فسره أنها كذلك. وكانت المشكلة كلها تتلخص في وجود هذا الزوج الذي لا يطاق. لو قد كنت أنا رجلًا طاهرًا نقيًا لما استطعت أن أدرك ذلك، ولكنني كأكثر الرجال كنت من قبل أن أتزوج، لا أرى في النساء رأيًا غير هذا الرأي، وهذا ما جعلني أقرأ في نفس صاحبي كما أقرأ في كتاب مفتوح. وقد فاقم ألمي أنني كنت أرى رؤية واضحة أن العاطفة الوحيدة التي تحملها لي هي الحنق الدائم المتصل تقطعه الشهوة المعهودة من حين إلى حين، وأن هذا الرجل، بما يمتاز به من أناقة، وَجِدَّة، وموهبة موسيقية، وبما قام بينه وبينها من تواصل حميم يخلقه الإشتراك في العزف بتأثير الموسيقى - ولا سيما الكمان - في النفوس الحساسة، قد أعجب زوجتي ولا شك، بل أنه يستطيع، دون أدنى ريب، أن ينتصر عليها، وأن يرميها بين قدميه، وأن يصنع بها ما يشاء. كنت لا أستطيع إلا أن أرى هذا كله، فكنت أشعر بألم رهيب. ولكنني

رغم هذا، وربما بسبب هذا، كنت مدفوعًا بقوة مجهولة مخالفة لإرادتي إلى أن أكون مهذبًا بل رقيق الحاشية. لا أدري أكان ذلك مني رغبة في أن أظهر لزوجتي أنني لا أخشاه، أم كان مخادعةً لنفسي عن حقيقة الأمر، ولكن الذي أعرفه هو أنني منذ أول إتصال به لم أستطع أن أكون بسيطًا معه. كان لا بد لي، حتى أخنق رغبتي في قتله فورًا، من أن أدله. فسقيته اثناء تناول طعام العشاء خير ما عندي من خمور، وأظهرت الحماسة لعزفه، وحدثته والإبتسام الرقيق على ثغري، ودعوته أن يأتي يوم الأحد القادم فيتناول معنا طعام الغداء ويعزف مع زوجتي. وقلت له أنني سأدعو بعض أصدقائي من هواة الموسيقى ليستمعوا إلى عزفه. نعم، هذا ما فعلته.

قال صاحبي بوزدنيشيف هذا الكلام، وظهرت عليه علائم اضطراب شديد، فغير وضعه، وضحك ضحكته الساخرة. ثم أردف يقول وهو يبذل جهدًا ظاهرًا لتهدئة نفسه:

- إنني لأمتلىء دهشة حين أتذكر كيف كان وجود هذا الرجل يؤثر في نفسي ذلك التأثير. في اليوم الثاني أو الثالث، عدت إلى البيت بعد زيارة أحد المعارض، فما إن صرت في المدخل حتى شعرت بأن قلبي ثقيل كأن فيه صخرة، ولم أفهم السبب في ذلك. لقد لمحت في الممر شيئًا ذكرني بتروها تشفسكي. ولم أدرك ذلك إلا حين وصلت إلى حجرة عملي، فعدت أدراجي لأتأكد الأمر. نعم، لم يخطئ ظني... إنه معطفه. وهو، كما تعلم، معطف من آخر طراز، من أحدث موضة (كنت ألاحظ بانتباه شديد كل ما يتصل به). وسألتُ فعرفت أنه في البيت حقًا. فمضيتُ إلى القاعة الكبرى مارًّا بالحجرة المخصصة لدراسة الأطفال، بدلًا من المرور بالصالون. كانت ابنتي ليزا تقرأ كتابًا، وكانت المربية واقفة مع ابنتنا الصغرى قرب المنضدة تدير غطاءً ما. وكان باب القاعة مغلقًا. سمعت نغمات مطردة، وسمعت صوتهما يتحدثان فأصغيت. ولكنني لم أميز شيئًا من كلامهما. قلت لنفسي: "لا شك أن القصد من إصدار هذه النغمات هو أن تغطي أقوالهما... وربما قبلاتهما... يا للزوبعة التي عصفت عندئذ في نفسي! حين أتذكر الوحش الذي كان يختبىء فيَّ، يستبد بي ذعر. لقد تقبض قلبي فجأة، وتوقف، ثم أخذ يخفق خفقانًا شديدًا. إن العاطفة الأساسية التي شعرت بها هي الاشفاق على نفسي، شأني في ذلك شأن كل من يغضب. قلت بيني وبين نفسي: "أأمام الأطفال، أأمام المربية؟". ولا شك أن وجهي كان على حال فظيعة من الإضطراب، فإن ليزا قد نظرت إليّ عندئذ نظرة غريبة. تساءلت: "ماذا أصنع؟ أأدخل؟ إنني لا أستطيع الدخول... لا يعلم إلا الله ماذا يمكن أن أفعل لو دخلت. ولكنني لا أستطيع أن أمضي أيضًا.. وكانت المربية تنظر إليّ نظرة من فهم الوضع. "يستحيل ألا أدخل"، قلت ذلك لنفسي ثم فتحت الباب بسرعة. كان هو جالسًا إلى البيانو يصدر تلك النغمات المطردة بأصابعه البيضاء الملتوية وكانت هي واقفة أمام دفاتر الموسيقى المفتوحة. وقد رأتني أو سمعتني قبل أن يراني هو، فنظرت إليّ. أأخفت ذعرها أم أنها لم تشعر بذعر؟ إنها لم ترتعش، ولكنها احمرت، ولم يظهر احمرارها هذا إلا بعد أن رأتني. قالت:

- يسرني أنك جئت، إننا لم نقرر بعد ما الذي سنعزفه يوم الأحد.

قالت ذلك بلهجة ليست لهجتها حين نكون وحدنا. فأثارني ذلك، وأثارني أنها تحدثت عن نفسها وعنه بقولها: "إننا".

وحيّيت الرجل صامتًا، فصافحني، وقال لي، وهو يبتسم إبتسامةً خلتها سخرًا، أنه جاء بدفاتر الموسيقى تهيؤًا لحفلة يوم الأحد، ولكنهما لم يتفقا بعد على الألحان التي سيعزفانها: هل يعزفان شيئًا صعبًا كلاسيكيًا أم يعزفان سوناته بتهوفن على الكمان، أم يعزفان معزوفات قصيرة؟ قال ذلك كله على صورة طبيعية بسيطة لا يمكن أن أقول فيها شيئًا، ولكنني كنت مقتنعًا بأن هذا كله كذب، وبأنهما متفقان على خداعي.

إن آلم شعور يحسه غيور (لاحظ أننا في حياتنا الإجتماعية غيورون جميعًا) هو أن بعض ظروف حياة المجتمع الراقي تتيح قيام صلة صميمة خطرة بين رجل وامرأة. إن المرء يصبح أضحوكة في فم الناس إذا حاول أن يمنع تلك القرابات التي تنشأ في حفلات الرقص، وتلك العلاقات التي تقوم بين الأطباء ومرضاهم، وذلك التواصل الحميم الذي يقوم نتيجة للاهتمام بالفنون، وبالتصوير وبالموسيقى خاصة. إن الذين يهتمون معًا بالموسيقى أرفع الفنون، يرون أنه لا بد أن يقوم بينهم شيء من هذا التواصل الحميم الذي ليس فيه ما يسيء، وأنه ما من أحد غير الزوج الأحمق الغيور يمكن أن يرى في ذلك أمرًا غير مستحب. ومع ذلك يعرف الناس جميعًا أن أكثر الخيانات الزوجية التي تقترف في بيئتنا انما تقترف بفضل هذه التسليات، وبفضل الموسيقى خاصة.

كان واضحًا أنهما انزعجا من الحالة التي كنت فيها. فإنني ظللت لحظة طويلة لا أعرف ماذا أقول. كنت كزجاجة انقلبت فلم يخرج منها الماء لأنها ممتلئة كل الامتلاء. كنت أود لو أشتمه، لو أطرده، ولكنني شعرت أن عليّ أن أكون، من جديد مهذبًا رقيق الحاشية معه. وكذلك فعلت. فتظاهرت بأنني أؤيد كل ما يرى من أمر، دفعتني إلى ذلك تلك العاطفة نفسها التي تجبرني على أن أكون ألطف ما أكون في معاملته حين يكون ألمي أشد ما يكون من وجوده. قلت إنني أدع أن يختار ما يشاء له ذوقه، ونصحتُ لزوجتي بأن الفعل مثل ما فعلت. ومكث بعد ذلك إلى أن تبدد الموقف المزعج الذي نشأ عن دخولي واضطراب وجهي. ثم مضى متظاهرًا بأن كل شيء قد تقرر فيما يتعلق بالمعزوفات التي سيعزفانها في الغد. وكنت ذلك على يقين تام من أنهما قد اهتما بشيء آخر غير هذا، وأن إختيار المعزوفة التي سيعزفانها أمر ليس له عندهما قيمة.

وشيعته إلى الباب في كثير من الأدب (إنه يستحيل أن تفعل غير هذا مع رجل جاء يحمل إلى بيتك الإضطراب، ويهدم سعادة أسرتك). وشددت على يده الناعمة البيضاء أصافحه في مودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

22

لم أكلم زوجتي طوال ذلك اليوم، كنت لا أستطيع أن أكلمها. وكان وجودها حولي يثير في نفسي كرهًا يبلغ من العنف أنه أخافني. وبينما كنا نتناول طعام الغداء، سألتني أمام الأولاد عن اليوم الذي أعتزم فيه السفر، ذلك أنني كنت أنوي الذهاب في الأسبوع التالي إلى مؤتمر يعقد في مركز الإقليم. فذكرت لها اليوم الذي أعتزم فيه السفر. فسألتني هل أنا في حاجة إلى شيء من أجل الرحلة. فلم أجبها. ولزمتُ الصمت حتى نهاية الغداء، ثم انسحبت إلى حجرة عملي دون أن أنبس بكلمة. وكانت زوجتي في هذه الأوقات الأخيرة لا توافيني في حجرتي أبدًا، ولا سيّما في ساعة كهذه الساعة. فاستلقيتُ وأخذتُ أجتر مرارة نفسي. وفجأة سمعت وقع خطواتها المعروفة قادمة نحوي. فراودتني هذه الفكرة الفظيعة الشيطانية، وهي توافيني في هذه الساعة على غير عادتها لتحاول، كما فعلت امرأة "أوري" أن تخفي الخطيئة التي قارفتها. قلت لنفسي وأنا أصغي إلى اقتراب خطواتها: "هل يمكن؟ لو جاءت الآن لكانت ظنوني في محلها". واستبد بنفسي كره لا أستطيع وصفه. وكانت خطواتها تزداد اقترابًا. أتراها تمر أمام بابي لتمضي إلى القاعة الكبرى؟ لا. ها هو ذا باب غرفتي يصر، وها هي ذي تظهر رشيقة جميلة، عند العتبة. وقرأت في وجهها وفي عينيها معاني الخشية والعبودية التي تود لو تخفيها، والتي أعرف دلالتها حق المعرفة. وكدت أختنق من فرط انحباس أنفاسي، فما إن رأيتها حتى تناولت علبة سجائري وأشعلت سيجارة. قالت وهي تحاول أن تجلس إلى جانبي على الديوان وتستند إليّ:

- ليس من اللباقة في شيء أن آتي إليك فتأخذ تدخن.

فابتعدت عنها حتى لا ألمسها. فقالت:

- يخيل إليّ أنك مستاء من أني سأعزف يوم الأحد

- أبدًا.

- أتظن أن استياءك يخفى عني؟

- أهنئكِ. ولست أرى إلا شيئًا واحدًا هو أنكِ تسلكين سلوك امرأة مغناج تحب أن تغري الرجال... والحق أنكِ امرأة يروق لها كل صغار أما أنا فذلك عندي شيء فظيع!

- ها... إذا كنت ترشقني بإهانات من تلك التي يتلفظ بها سائقو العربات، فإنني لن أبقى هنا.

- اذهبي. ولكن اعلمي أن شرف العائلة إن كان لا يعنيك، فهو يعنيني. وهذا الشرف هو الشيء العزيز في نفسي، لا أنت... أما أنت فاذهبي إلى جهنم...

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

- اذهبي... اذهبي.

لا أدري أتظاهرت بأنها لم تفهم ما قلت أم أنها لم تفهمه حقًا، ولكن الشيء الذي أعرفه أنها انزعجت، وغضبت، ووقفت في وسط الغرفة بدلًا من أن تذهب. ثم قالت:

- الحق أنكَ أصبحتَ لا تطاق. إن طبعك لا يتحمله ملاك من الملائكة.

وعلى عادتها حين تريد أن تؤذيني أكبر إيذاء ممكن، ذكرتني بسلوكي مع أختي. (لقد سبق أن خرجتُ عن طوري، فخاطبت أختي بكلام فظ غليظ). إن زوجتي تعرف أن هذه الذكرى تؤلمني، فبادرت إلى تذكيري بها، وقالت:

- بعد الذي صنعته بأختك لا أستغرب من منك شيئًا.

قلت لنفسي: "أتهينني وتهدر كرامتي وتلطخ شرفي بالعار ثم تريد بعد ذلك أن تلصق بي كل الأخطاء؟. وشعرت فجأة بكره لا عهد لي بمثله من قبل.

لأول مرة اشتهيت أن أعبر عن كرهي بأفعال. فقفزت من مكاني، وتقدمت نحوها. إني أتذكر الآن تذكرًا كاملًا أنني كنت واعيًا في تلك اللحظة، فتساءلت: هل يجمل بي أن أستام لهذا الإنفعال؟ ثم أجبت نفسي: نعم يجمل بي ذلك، وستخاف. وما لبثت أن أوريت غضبي بدلًا من أن أكظمه، وسرني أني رأيته يزداد عنفًا.

- اذهبي وإلا كان يمكن أن أقتلك!

هذا ما صحت به وأنا أقترب منها وأمسك ذراعها، وأفاقم نبرة الكره في صوتي عن عمد. ولا شك أن منظري عندئذٍ كان رهيبًا. فإن زوجتي قد بلغت من الخوف أنها لم تقوَ حتى على الخروج، فكانت لا تزيد على أن تردد قولها: "فاسيا، ماذا دهاك؟... ماذا هنالك؟...".

فصرخت بصوت أقوى:

- أخرجي! أنت وحدك قد أوتيت القدرة على اغضابي هكذا. لست أنا المسئول.

سكرت من نشوة استسلامي لهذا الجنون، وشعرت بحاجة إلى أن أفعل شيئًا خارقًا، لأظهر مدى ما بلغت من حنق.

استبدت بي رغبة مجنونة في أن أضربها، في أن أقتلها و لكنني كنت أعرف أن هذا أمر تمنعه القوانين. ومع ذلك فإنني من أجل أن أروي ظمأي إلى الغضب، تناولت من على المنضدة السكين الثقيلة التي أفتح بها الكتب، فرميتها على الأرض قرب زوجتي وأنا أصرخ "اذهبي".. لقد أحكمت التسديد بحيث لا تبلغها السكين. فتقدمت لتخرج من الغرفة. وظللت طوال الوقت الذي كانت تستطيع خلاله أن تراني أزأر قليلًا: "اذهبي اذهبي!". حتى لقد تناولت أثناء ذلك من على منضدتي شمعدانًا ومحبرة فرميتهما على الأرض. فلما خرجت توقفت عن ذلك فورًا.

وبعد ساعة جاءت المربية تقول إن سيدتها في نوبة عصبية. فمضيت إليها لأراها: كانت تبكي وتضحك ولا تقدر على الكلام وترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها. إنها لا تتظاهر بهذا كله تظاهرًا، فلقد كانت مريضة حقًا.

وهدأت عند الصباح، فتصالحنا بتأثير هذه العاطفة التي كنا نسميها حبًا. واعترفتَ لها بأنني أغار من تروها تشفسكي، فلم تضطرب اي اضطراب، بل ضحكت ضحكة طبيعية، حتى لقد أظهرت أنها تستغرب أن تقبل امرأة أن يغريها رجل كهذا الرجل وقالت: هل في وسع امرأة شريفة أن تشعر نحو هذا الرجل بغير الإمتنان على ما تهيئه لها موسيقاه من متعة؟ وأضافت تقول: وأنا مستعدة، إذا شئت، لأن لا أراه بعد اليوم أبدًا، وأن نلغي حفلة يوم الاحد، رغم أن الدعوات قد وجهت جميعها. وما عليك من أجل ذلك إلا أن تبلغ المدعوين أنني مريضة. غير أن في هذا الأمر شيءٌ مزعج، وهو أن بعض الناس، وخاصة هو، يمكن أن يدور في خلدهم أنني أعده رجلًا خطرًا وأنا امرأة أقوى اعتزازًا بكبريائي من أن ينصرف ذهن أحد إلى شيء من هذا.

كانت لا تكذب، وكانت تؤمن بما تقول: كانت تأمل أن توقظ في نفسها احتقار هذا الرجل بهذه الكلمات، وأن تحمي نفسها من سلطانه عليها. ولكنها لم تظفر بذلك. كان كل شيء ضدها، وخاصة هذه الموسيقى اللعينة.

وقف حديثنا عند هذا الحد. ووصل المدعوون يوم الأحد، وعزفا من جديد معًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23

من ناقل القول أن أذكر أنني كنت شديد حب الظهور. وبدون هذه الآفة في طبعي، لا يكون ثمة مبرر لما وقع. لقد عنيت في ذلك الأحد بتنظيم العشاء وإعداد السهرة الموسيقية، فعلت ذلك مسرورًا، حتى لقد توليت بنفسي شراء أشياء كثيرة، وأرسلت الدعوات.

فلما حانت الساعة السادسة وصل المدعوون. وقد جاء تروها تشفسكي مرتديًا الفراك، وكانت الأزرار الماسية تزين أكمامه وتدل على كثير من رداءة الذوق. كان خفيف الحركة يفيض انطلاقًا وسهولة، وكان يجيب على أسئلتنا إجابات سريعة، وقد بدت على وجهه علائم التأييد والتحبيذ والفهم. كان وجهه يعبر عن أن كل ما تقوله له هو بعينه ما كان ينتظر أن يسمعه.

لقد سرني جدًا أن ألاحظ في تلك اللحظة كل ما كان في هذا الرجل من لبس، لأن ذلك يبرهن لي على أنه أحقر من أن تنحط زوجتي إلى مستواه. ولم يبق ثمة مجال للغيرة، أولًا لأنني كنت متعبًا وكنت في حاجة إلى الراحة، وثانيًا لأنني كنت أريد أن أثق بزوجتي، وقد وثقت بها. ومع ذلك، رغم زوال كل غيرة، لم أستطع أن أسلك سلوكًا طبيعيًا لا معه ولا معها، وظللت طوال فترة العشاء وطوال الجزء الأول من السهرة، أي إلى أن أخذا يعزفان، ظللت أراقب جميع حركاتهما، بل وجميع نظراتهما وكانت حفلة العشاء، كسائر حفلات العشاء، مملة، مليئة بالنفاق وما إن انتهينا من تناول الطعام حتى بدأ البرنامج الموسيقي. إنني أتذكر الآن تذكرًا واضحًا جميع تفاصيل تلك السهرة. ها هو ذا يأتي بكمانه، يفتح صندوقها، ويرفع مفرشها الذي طرزته له سيدة من السيدات، ويتناولها بيديه، ويأخذ يدوزنها، وها هي ذي امرأتي تجلس إلى البيانو وهي تتظاهر بعدم الإهتمام، وتخفي خجلها، وتتشكك خاصة في معرفتها بالعزف. وسمعنا زقزقات الكمان وترتيب الأجزاء أول ما سمعنا.

وما زلت أتذكر كيف نظر كل منهما إلى الآخر حين رأيا المدعوين يجلسون في أماكنهم، وكيف تبادلا بضع كلمات. وبدأ العزف، أصدر تروها تشفسكي النغمات الأولى. ولاح وجهه جادًا، قاسيًا، محييًا، وأصغى إلى الأصوات التي تخرج من آلته، فأجرى أصابعه على الأوتار خفيفة في حذر. وأجابه البيانو. لقد بدأ العزف.

روى بوزدنتشيف ذلك كله، ثم توقف عن الكلام، وأطلق ضحكته الساخرة. وأراد أن يستأنف حديثه، ولكنه نشق مخاطه وتوقف مرة أخرى. ثم أردف يتم قصته. قال:

لقد عزفا لحن كرويتزر لبتهوفن. هل تعرف مقطعه الأول؟ أوه أوه أوه... إنها لشيء فظيع، هذه السوناته (قال ذلك صائحًا)... وخاصة ذلك الجزء منها. إن الموسيقى لشيء فظيع بوجه عام. ما هذا؟ إني لا أفهم. ما هي الموسيقى؟ ما الذي تصنعه بالإنسان؟ لماذا تؤثر فيه هذا التأثير؟ يقول الناس أن الموسيقى تسمو بالنفس... ألا أن هذا الكلام لكذب، إن لها في النفس تأثيرًا رهيبًا... إنها لا تسمو بنفسي أنا والحق لا تسمو بالنفس ولا تهبط بها، وإنما هي تهيجها لا أكثر من ذلك

ولا أقل. كيف أعبر لك عن فكرتي؟ إن الموسيقى تجبرني على أن أنسى نفسي، على أن أنسى حقيقة الوضع الذي أنا فيه، وتنقلني إلى عالم آخر. يتراءى لي، بتأثير الموسيقى، أنني أحس ما لا أحسه في الواقع، وأفهم ما لا أفهمه، وأقدر على ما لا أقدر عليه. أغلب ظني أن الموسيقى تؤثر مثلما يؤثر تثاؤب أو ضحك: يكون المرء في غير حاجة إلى النوم، فإذا تثاءب أحدٌ أمامه، تثاءب هو أيضًا، ولا يكون ثمة داعٍ إلى الضحك فإذا سمعت الناس من حولك يضحكون أخذت تضحك معهم. إنَّ الموسيقى تنقلني إلى الحالة النفسية التي عاناها المؤلف، وتتحد روحي بروحه، فإذا نحن نطوف معًا من حالة إلى حالة. لماذا؟ لا أدري.

إن بتهوفن الذي ألف سوناتة كروتيزر يعرف لماذا كان في تلك الحالة النفسية، وقد أدت به تلك الحالة النفسية إلى القيام ببعض الأعمال، وكان لها عنده معنى، أما أنا فلا يمكن أن يكون لها عندي دلالة. لذلك تهيجني الموسيقى دون أن تولد في نفسي ارتياحًا بعينه. حين يعزف لحن عسكري يمشي الجنود مصطفين، وتبلغ الموسيقى غايتها، وحين يعزف لحن راقص، يرقص الناس و تحقق الموسيقى هدفها، وحين تغنى صلاة، يصلي المؤمنون وتقوم الموسيقى بوظيفتها. أما أنا فلا شيء غير الاهتياج، ولا يعرف المرء فيم يستعمل هذا الاهتياج! لذلك كانت الموسيقى فظيعة كل الفظاعة وكانت تفعل في النفس فعلًا رهيبًا في كثير من الأحيان. إن الموسيقى في الصين، من الأمور التي تُشْرِف عليها الدولة... وكذلك يجب أن تكون في كل مكان. كيف تسمح لكل من يشاء، أن ينوم تنويمًا مغناطيسيًا شخصًا أو عدة أشخاص ليصنع به أو ليصنع بهم بعدئذ كل ما يشتهي؟ وما قولك اذا كان المنوم رجلًا تافهًا حقيرًا قدم إليك عرضًا؟

يا لها من أيدٍ تلك الأيدي التي تمسك بهذه الوسيلة المخيفة! أنظر، على سبيل المثال: هذا المقطع الأول من سوناتة كرويتزر، هل يمكن عزفه في صالون بين سيدات عاريات النحور يسمعن العزف فيصفقن له ثم يمضين يأكلن المرطبات وهن يثرثرن فيما هب ودب. إن لحنًا كهذا اللحن لا ينبغي أن يعزف إلا في بعض الظروف المهينة الفخمة الهامة، أو حين يجب القيام بأعمال تناسب تلك الموسيقى. يجب أن تسمع هذه الموسيقى ثم تنهض للقيام بالأعمال التي أوحت بها إليك. أما إثارة النشاط إثارة لا تتناسب مع المكان الذي أنت فيه ومع الزمان الذي أنت فيه، أما إهاجة عواطف لا يمكن أن تجد سبيلها إلى الظهور في أفعال، فذلك يؤذي إيذاءً شديدًا. مهما يكن أمر فقد كان لتلك السوناتة في نفسي أنا تأثير مخيف: فلقد خيل إليّ أنني أكتشف عالمًا من العواطف والإمكانات الجديدة كنت أجهلها إلى ذلك الحين. لقد سمعت صوتًا يهتف بي من أعماقي بقوله: نعم، هكذا يجب أن تعيش، لا كما كنت تظن من قبل، أما ما هو ذلك الشيء الجديد، فإنني لم أدركه في أول الأمر، ولكن مجرد إحساسي به قد بث في قلبي فرحًا كبيرًا. وأصبحت أرى الحاضرين، ومن بينهم هو وزوجتي، رؤية جديدة.

فلما فرغا من عزف ذلك المقطع، عزفًا مقطعًا آخر جميلًا، ولكنه لا يشتمل على شيء خاص، ولا هو جديد كثيرًا حتى لقد كانت تبدلاته مبذولة، ثم عزفا الخاتمة التي وجدتها ضعيفة جدًا والحق يقال. وعزفا بعد ذلك، إستجابةً لطلب المدعوين،

مرثية لأرنست، وقطعًا أخرى صغيرة. وكان ذلك كله جميلًا، غير أنه لم يحدث في نفسي عشر معشار التأثير الذي أحدثه فيها مطلع السونانة. لقد كان ذلك التأثير يسيطر في روحي على كل شيء.

وظللت السهرة كلها أحس بنفسي خفيفًا مرحًا. إنني لم أرَ زوجتي في حياتي كما رأيتها ذلك المساء، كانت عيناها أثناء العزف متقدتين، وكان في وجهها قسوة ما لبثت أن استحالت حين توقف العزف إلى حياء فاتن، وإبتسامةً عذبة خجلى سعيدة. رأيت ذلك كله، ولكنني لم أحمله من المعنى غير إحساسها بتلك المشاعر الجديدة التي شعرت بها أنا إزاء هذه الموسيقى. وانتهت السهرة بلا أحداث مزعجة ومضى ضيوفنا إلى بيوتهم.

وكان تروها تشفسكي يعلم أنني مسافر بعد يومين للاشتراك في المؤتمر، فقال وهو يستأذننا بالانصراف أنه يأمل أن يسعد بإحياء سهرة موسيقية أخرى في بيتنا متى عاد إلى موسكو في رحلة أخرى. واستنتجتُ من كلماته هذه أنه لا يرى أن من اللائق أن يجيء إلى بيتي أثناء غيابي فسرني ذلك منه.

واستنتجت من كلماته أيضًا أنني لن أعود من رحلتي إلا بعد سفره، وأنني لن ألقاه إذًا.

فرأيتني، لأول مرة، أصافحه بسرور ظاهر لا أخفيه، وأشكر له زيارته هذه التي سعدنا بها. وبدا لي وداعهما بسيطًا طبعًا الغى أبعد الحدود. وكان كل شيء يجري إذًا على خير حال. وسررنا بهذه السهرة سرورًا عظيمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24

وودعت زوجتي بعد يومين، وسافرت هادئ البال سعيدًا. وهناك، في المؤتمر، يعمل المرء كثيرًا، ويعيش حياة خاصة جدًا في عالم صغير مختلف عن عالمه. فكنت خلال يومين أعمل في المكتب عشر ساعات في النهار. وفي اليوم الثاني، جيء لي برسالة من زوجتي.

إنها تحدثني عن أطفالنا، وعن العم، وعن المربية، وعن أشياء اشترتها، ثم تقول لي إن تروها تشفسكي قد جاء إليها يحمل معزوفات جديدة، واقترح عليها أن يعزفا مرة أخرى، ولكنها رفضت، قالت ذلك كأنه أمر طبيعي جدًا لا غرابة فيه.

لم أتذكر أنه كان قد وعدها بأن يجيئها بموسيقى جديدة. وتراءى لي أنه قد ودعها وداعًا أخيرًا. فدهشت مما ذكرته دهشةً مزعجةً. غير أن أعمالي كانت من الكثرة بحيث لم يتسع وقتي للتفكير في هذا الأمر كله، ولم أعد قراءة الرسالة إلى حين رجعت إلى حجرتي في المساء.

فوجدت أن لهجة الرسالة غير طبيعية، عدا أن تروها تشفسكي قد زار زوجتي. فأحسست أن وحشًا مفترسًا قد همهم في نفسي من شدة الغيرة، وأراد أن يخرج، ولكنني خفت منه، فما لبثت أن كبحت جماحه. قلت لنفسي: "ما أبشع هذه الغيرة من عاطفة؟ هل ثمة شيء أقرب إلى البساطة والانطلاق الطبيعي من هذا الذي تكتبه زوجتي؟"

واستلقيت على سريري، وأخذت أفكر في الأعمال التي تنتظرني في الغداة. وكان من عادتي أن يصعب عليّ النوم حين أنتقل من بيتي، ولكنني في هذه المرة ما لبثت أن غططت في نوم عميق. وإني لفي ذلك النوم العميق، إذا بي استيقظ فجأة، كان تيارًا كهربائيًا قد مسني، كما يحدث ذلك أحيانًا، فانتفضت من على سريري مفكرًا في زوجتي، وفي حبي الشهواني لها، وفي تروها تشفسكي، متخيلًا أن كل شيء قد تم بينهما وانتهى الأمر. يا لهول الحنق الذي حطم قلبي في تلك اللحظة: وحاولت أن أهدىء نفسي، وأن أردها إلى العقل والصواب، فقلت: هذا هراء، ولا داعي إلى القلق، فما حدث شيء ولن يحدث شيء، ولا يحق لي أن أحقر نفسي وأن أحقر زوجتي بهذه الظنون! ما هو إلا عازف على الكمان عُرف بين الناس بسوء السمعة، ولا يعقل أن تقدم سيدة محترمة، لا يعقل أن تقدم ربة أسرة محترمة على... هذا سخف. ولكنني ما لبثت أن هتفت جهة أخرى أقول: ولكن كيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا... إن الشيء البسيط الطبيعي الذي من أجله تزوجت، ومن أجله عشت مع امرأتي، هذا الشيء الذي كان ضرورة لي كما هو ضرورة لسائر الرجال، هو بعينه ما يقود خطوات هذا الموسيقي. إنه عازب، قوي البنية، جيد الصحة (إنني أتذكر كيف كان أثناء العشاء يقضم غضروف الضلع قضمًا، وكيف كان يلتهم قدح الخمر إلتهامًا شرهًا) بدين، يأكل جيد الطعام، وليس هو بالرجل الذي لا مبادىء له، بل هو أيضًا إنسان جعل قانون حياته أن ينتهز جميع الفرص وأن يتمتع بجميع ما يتاح له التمتع به من ملذات. وقد قامت بينه وبين زوجتي تلك الصلة التي خلقتها الموسيقى، وهي من أرهف العواطف اللذيذة، فما الذي يمكن أن يمنعه؟ لا شيء يمكن أن

يمنعه، بل كل شيء يدفعه ويجذبه. وهي؟ من هي؟ إنها سر مستغلق، كما كانت كذلك دائمًا. إنني لا أعرفها. إنني لا أعرف منها إلا الجانب الحيواني. وأي شيء يمكن أو يجب أن يمنع الحيوان...

في تلك اللحظة، إنما تذكرت وجهيهما أثناء السهرة، حين عزفا، بعد سوناتة كرويتزر، قطعة قصيرة لا أذكر اسم مؤلفها، ولكنها كانت شهوانية إلى أبعد الحدود. قلت لنفسي وأنا أرى ما كان في وجهيهما من معانٍ: كيف أمكنك أن تسافر! ألم يكن واضحًا أنهما اتفقا على كل شيء يمكن أن يفرق بينهما بعد الآن، وأنهما كانا يشعران كلاهما، وخاصة هي، بشيء من الحرج بعد كل ما وقع بينهما؟ تذكرت بسمتها العذبة، الخجلى، السعيدة، وتذكرت احمرار وجهها الذي كانت تمسح عرقه بمنديلها وهي تقترب من البيانو. كانا منذ تلك اللحظة يتحاشيان أن ينظر أحدهما إلى الآخر ولم يجرؤا إلا أثناء العشاء، بينما كانت تصب له الشراب، على أن يتبادلا النظرة، وأن يبتسم كل منها للآخر إبتسامةً يسيرة لا تلاحظ، نعم، لقد انتهى كل شيء. هذا ما هتف به لي صوت. ولكن صوتًا آخر ما لبث أن هتف لي يقول نقيض ذلك، يقول: ماذا دهاك؟ ذلك مستحيل!.. وأزعجني أن أبقى في الظلام، فأوقدت شمعة، وأخذ الخوف يستبد بي، في هذه الغرفة الصغيرة المفروشة ببساط أصفر. وأشعلت سيجارة فدخنتها، وأتبعتها بسيجارة أخرى، ثم بسيجارة ثالثة، وهكذا دواليك، كما يتفق للمرء دائمًا حين يصارع أشكالًا لا يعرف كيف يخرج منها، وذلك حتى يطيش صوابه، فما يدرك التناقضات التي في عقله.

وظللت الليلة كلها لا أعرف إلى النوم سبيلًا، حتى إذا دقت الساعة الخامسة، قررت أنني لا أطيق إحتمال هذه الحالة من البلبلة والتشوش وتوتر الفكر، وهيأت نفسي للسفر، فنهضت وأيقظت البواب الذي كان يخدمني، وأرسلته يبحث لي عن خيل. وكتبت كلمة للمؤتمر ذكرت فيها أنني استدعيت إلى موسكو على جناح السرعة لأمر مستعجل، ورجوت أن ينوب عني في حضور جلساته عضو آخر من أعضائنا. وما جاءت الساعة الثامنة حتى كنت في طريقي إلى موسكو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25

دخل مفتش القطار، فلاحظ أن شمعة مصباحنا توشك على الإنتهاء، فأطفأها دون أن يضع شمعة أخرى في مكانها. وطلع الفجر. صمت بوزدنيشيف، وزفر زفرات عميقة. ثم لم يستأنف رواية قصته إلا بعد أن ذهب المفتش، وأصبحنا في شبه ظلمة، وأصبحنا لا نسمع إلا تراطم زجاج القطار المارق مروق السهم، وإلا شخير البائع يتردد رتيبًا على وتيرة واحدة. كنت لا أتبينه في ذلك الضوء الخافت، ضوء الفجر. وإنما كنت أسمع صوته، فأدرك أنه يزداد اضطرابًا شيئًا بعد شيء، وأنه يعاني ألمًا شديدًا، قال:

- كان عليّ أن أقطع خمسة وثلاثين فرسخًا بالعربة، وثماني ساعات بالقطار. وكانت رحلتي بالعربة رائعة. كان ذلك في يوم بارد من أيام الخريف، ولكن الشمس كانت ساطعة. عجلات العربة تخلف في جليد الطريق أخاديد جميلة، والأرض ناعمة، والنور ساطع، والهواء منعش. لقد أحسنت إلي ّهذه النزهة بالعربة. فما إن مضت بي حتى شعرت بتحسن في حالتي. فكنت أنظر إلى الخيل، وأسرح طرفي في الحقول، وأتأمل الناس الذين أصادفهم، فأنسى إلى أين كنت ذاهبًا. حتى لقد خيّل إليّ في بعض اللحظات أنني مسافر لا لسبب يدفعني إلى السفر دفعًا، بل للإستمتاع بلذة السفر. وكنت في نشوة من ذهولي عن نفسي هذا الذهول. وكنت إذا تذكرت عرَضًا إلى أين أنا ذاهب أقول لنفسي: "دعك من التفكير في هذا الآن، وسيتضح كل شيء فيما بعد". وفي منتصف الطريق وقع لي حادث صغير أخرني بعض التأخير، وأتاح لي سلوى جديدة. لقد انكسرت العربة، فكان لا بد من إصلاحها لاستئناف المسير. وكان لهذا الحادث شأن كبير، لأنه جعلني لا أصل إلى موسكو إلا في منتصف الليل، ولا أصل إلى البيت إلا في الواحدة من الصباح، في حين أنني كنت سأصل في الساعة الخامسة، لقد تأخرت عن القطار السريع، فاضطررت أن أسافر على قطار الركاب. وكان في وصول عربة النجدة وإصلاح المركبة، ودفع الأجرة، واحتساء الشاي في المضافة، والحديث مع صاحبها، كان في كل ذلك مزيد من السلوى أنساني نفسي، فلما هبط المساء كان كل شيء قد هيء، فاستأنفنا المسير. والحق أن الرحلة في الليل كانت أعظم متعة أيضًا. القمر في ربعه الأول، والجو بارد، والطريق جميلة، والخيل من أجود الخيول، والحوذي مرح. تمتعت بهذا كله، وأنا لا أكاد أفكر فيما ينتظرني، أو لعلني تمتعت به هذا التمتع كله لأنني كنت أدرك جميع مباهج الحياة. ولكن كل ما كنت أحسه من هدوء ومن سيطرة على عواطفي انتهى بانتهاء السفر على العربة. فما إن دخلت القطار حتى أصبحت أشعر بشيء آخر مختلف عما كنت أشعر به كل الاختلاف. إن الساعات الثماني التي قضيتها في القطار قد خلفت في نفسي أثرًا طبيعًا لن أنساه ما حييت. لا أدري هل يرجع ذلك إلى أنني حين جلست في القطار تخيلت أنني وصلت، أم هو يرجع إلى أن السفر بالقطار يهيج أعصاب المسافرين، ولكنني أعرف أنني منذ جلست على مقعدي في القطار أصبحت لا أستطيع أن أكبح جماح خيالي، فكان يرسم لي صورًا واضحة إلى أبعد حدود الوضوح، صورًا تؤجج نار الغيرة في نفسي، صورًا قبيحة تدور كلها على موضوع واحد بعينه: ما يقع هناك، في منزلي، ما يتم من خيانة أثناء غيابي. فكنت

أحترق ألمًا وحنقًا وكرهًا، وكنت كالسكران من طيش صوابي. كنت لا أستطيع أن أطرد هذه اللوحات الفظيعة، بل وأن استدعيها إلى خاطري. والأفدح من ذلك أنني كنت كلما تأملت هذه الصور التي ينشئها خيالي أزداد إيمانًا بأنها واقعة. كان وضوح ظهور هذه الأخيلة العجيبة في ذهني بمثابة دليل لي على أنها واقعة. كان هناك شيطان يوحي إليّ بفروض وظنون مجنونة، على رغم إرادتي. وتذكرت حديثًا قام بيني وبين أحد أخوي تروها تشفسكي في الزمان الماضي، فأفرحني فرحًا عجيبا أن أمزق قلبي بتطبيق ذلك الحديث على تروها تشفسكي وزوجتي.

لقد دار ذلك الحديث بيني وبين أخيه منذ مدة طويلة، ولكنني تذكرته عندئذ واضحًا. لقد سألت أخاه في ذلك الوقت هل هو يرتاد بيوت الدعارة، فأجابني بقوله: إن الرجل الشريف لا يحتاج إلى ارتياد تلك البيوت التي قد يصاب فيها بمرض، والتي هي شيء قدر يبعث على الاشمئزار، ولكنه يستطيع بسهولة أن يجد إمرأة مناسبة. ها هو ذا أخوه قد وجد زوجتي إذن! وقلت في نفسي: صحيح أن زوجتي ليست في ريعان الصبا، وأنها فقدت أسنانها، وأنها ترهلت قليلًا، ولكن على المرء أن يستفيد مما يعثر عليه... نعم، إنه يستطيع أن يتنازل فيهبط إليها، ويتخذ منها خليلة إلى حين... ثم أنها لا خطر منها على صحته الغالية!... قلت ذلك بيني وبين نفسي، ثم ما لبثت أن هتفت وقد استبد بي الذعر: لا، لا، إن هذا مستحيل. لا شيء من هذا يمكن أن يقع، بل ليس ثمة ما يدعو إلى مثل هذه الظنون البتة. ألم تقل هي نفسها أنها تشعر بالإهانة حين تتصور تصورًا أنني يمكن أن أغار منه؟ نعم، ولكنها كاذبة. إنها. هذا ما صحت به. وعاد عذابي...

لم يكن في العربة التي كنت فيها من القطار إلا مسافران، إمرأة عجوز وزوجها. وكانا صامتين كلاهما. وقد نزلا عند إحدى المحطات، فبقيت وحدي. كنت أشبه بوحش مفترس حبس في قفص، ونهضت فجأة، واقتربت من النافذة. كنت أمشي مهتزًا، كأني أحاول أن أدفع القطار إلى مزيد من السرعة، وكانت العربة بما فيها من مقاعد وزجاج، تفرقع مثلما تفرقع الآن.

نهض بوزدنيشيف، وخطا بضع خطوات، ثم عاد فجلس.

- آه... إنني أخاف من عربات القطار. إنها ترعبني. إنها فظيعة، قلت لنفسي: فكر في شيء آخر. فكر مثلًا في تلك المضافة التي شربت فيها الشاي. ولكنني ما إن فكرت في المضافة حتى تصورت صاحبها ذا اللحية وحفيده الذي هو في عمر إبني فاسيا. مسكين إبني فاسيا، إنه سيرى الموسيقي وهو يقبل أمه. ما الذي سيدور في نفسه الشقية حين يرى هذا المشهد؟ إنها، هي، لا تعبأ بهذا، وليس له عندها قيمة! هكذا كنت أعود إلى التفكير في ذلك الموضوع نفسه. لا، لا سأفكر في زيارة للمستشفى. أمس شكى أحد المرضى من الطبيب. ولكن الطبيب له شاربان يشبهان شاربي تروها تشفسكي. يا لتلك الوقاحة في كذبهما عليّ، حين زعم لي أنه سافر. ها أنا ذا أعود إلى التفكير في الموضوع نفسه!... إن كل ما كنت أفكر فيه كان يذكرني بتروها تشفسكي. وكنت أعاني ألمًا فظيعًا. إن السبب الأساسي في هذا كله هو أنني أجهل وأشك، ولا أستطيع أن أعرف هل يجب أن أحب زوجتي أم يجب أن أكرهها. وبلغت من فرط العذاب أن انبثقت في ذهني فكرة طربتُ لها طربًا كبيرًا، وهي أن

أخرج من القطار، وأن أتمدد على سكتيّه، فأتخلص من الحياة. إنني بذلك أتحرر من الشكوك على الأقل. ولم يخيفني من تنفيذ هذه الفكرة إلا أنني أشفقت على نفسي اشفاقًا كبيرًا، ورثيت لحالي كثيرًا، وأعقب ذلك كره وحشي مفترس شعرت به نحو زوجتي. كان شعوري نحوه، هو، عاطفة غريبة هي العداوة ممزوجة بالإحساس باخفاقي وانتصاره. أما شعوري نحوها هي فقد كان هو الكره ولا شيء غير الكره. قلت لنفسي: لا يمكن أن أنتحر، وأن أدعها هكذا، يجب أن تتألم قليلًا لتعرف ما عانيتُ أنا من ألم.

وكنت أنزل في جميع المحطات، نشدانًا للسلوى. فرأيت في مقصف إحداها أُناسًا يشربون، فما لبثت أن بلعت عددًا من أقداح الفودكا. وكان إلى جانبي رجل يهودي يشرب، فقام بيني وبينه حديث، ثم صحبته إلى العربة التي كان فيها من القطار، حتى لا أبقى في عربتي وحيدًا. كان هو في الدرجة الثالثة، وكانت حجرته قذرة، ملأى بالدخان، والنفايات. جلستُ إلى جانبه، فترثر كبيرًا، وقص عليّ نوادر وفكاهات. فكنت أصغي إليه، ولكنني لا أفهم شيئًا مما يقول، لأنني كنت غارقًا في أفكاري. فلاحظ ذلك، فأراد أن يشد إليه انتباهي، فنهضت وعدت إلى حجرتي. قلت لنفسي: فكر في الأمر أيها الرجل، هل هذا الذي يشغل بالك أمر معقول؟.. هل هناك مبرر لهذا العذاب الذي تسببه لنفسك؟. وجلست حتى أفكر على هون وراحة، ولكنني ما لبثت أن عدت إلى ما كنت فيه، بدلًا من تقليب الأمر على وجوهه في هدوء، فإذا اللوحات التي ينشئها خيالي تحل محل التفكير السليم. قلت لنفسي: ما أكثر ما تألمت أيها الرجل مثلما تتألم الآن (تذكرت نوبات الغيرة التي تملكتني في الماضي)، ثم ثبت لك أن غيرتك لم تكن في محلها. ثق أنك ستجدها الليلة نائمة في سريرها نومًا هادئًا، وسيسعدها أن تستيقظ فتراك أمامها، وستحس من كلماتها ونظراتها أن شيئًا لم يقع، وأن كل ما خامرك من ظنون كان سخيفًا!... ولكن لا... إن ما حدث في الماضي غير ما يحدث الآن. هكذا هتف بي هاتف من أعماق نفسي، وزادت حالتي غليانًا. نعم، إنه لعذاب شديد. لو أردت أن أقزز شابًا من النساء إلى الأبد، لما أريته مشهد مرضى مصابين بالزهري في مستشفى من المستشفيات، بل لكشفت له عن نفسي عارية حتى يرى الشياطين التي تمزقها تمزيقًا. وأفدح ما في الأمر أنني كنت أعد نفسي صاحب حق في جسدها كأنه جسدي أنا، وكنت أحس رغم ذلك أنني لا أملكه، وأنها تستطيع أن تتصرف فيه كما يشاء لها هواها، وأنها تريد أن تتصرف فيه على غير ما أريد، وأنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا في حقها ولا في حق صاحبها.

إنه ليستطيع أن يغني أمام المشنقة، مثلما فعل فانكا لمنتشينك ([6]) أغنية يشيد فيها بمغامراته وقبلاته. وهو المنتصر عندئذ. وإذا كنت عاجزًا ازاءه، فإنني ازاءها لأعجز. وإذا ثبت أنها لم تفعل شيئًا بعد، وإنما هي تنوي أن تفعل شيئًا، فإن ذلك أنكى، الحق أني كنت لا أعرف ماذا أريد. كنت أريد أن لا تتمنى ما كان ينبغي أن تتمناه. كنت في حالة من حالات الجنون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

26

فلما أقبل المفتش، قبل الوصول إلى المحطة الأخيرة، يجمع التذاكر، هيأتُ أشيائي وخرجت إلى الفسحة. إن شعوري بأن اللحظة الحاسمة تقترب قد فاقم اضطرابي. وشعرت ببرد يسري في جسمي، وأخذت أسناني تصطك. فلما وقف القطار نزلت مع النازلين على غير شعور، واستأجرت عربة، ومضيت، كنت أنظر إلى المارة القلائل، وإلى حراس الليل، وإلى الظلال التي تلقيها المصابيح وتلقيها عربتي من خلف تارة ومن قدام تارة أخرى، كنت أنظر إلى ذلك كله دون أن أفكر في شيء.

فلما اجتزت هذه المحال نصف كيلو متر، أحسست بصقيع في قدمي، فتذكرت أنني قد خلعت جوارب الصوف في القطار ووضعته في الكيس. أين الكيس؟ هو ذا. وأين السلة؟ هنا تذكرت أنني نسيت أن أستلم حقائبي، ولكنني وقد رأيت أنني أحمل قسيمتها قررت أن لا أعود لأخذها وتابعت طريقي.

إنني أحاول أن أتذكر الآن الحالة النفسية التي كنت فيها عندئذ، فلا أستطيع. لا أعرف الآن ما الذي كنت أفكر فيه، وما الذي كنت أريده. ولكنني أتذكر أنني كنت أحس أن أمرًا رهبًا سيقع، أمرًا خطيرًا كل الخطورة في حياتي... هل وقع هذا الأمر لأنني كنت أفكر فيه، وأوجسه؟ لا أدري! ليس من المستبعد على كل حال أن الدقائق التي سبقت ما تلاها من حوادث قد استمدت من هذه الحوادث ألوانًا قائمة. اقتربتُ من بيتنا. كان الليل قد جاوز نصفه بضع دقائق. وهناك في الطريق عربات أن تعثر عسى أن تعثر على زبون.. القاعة والصالون من بيتي مضاءان يخرج من نوافذهما نور.

لم أتساءل لماذا يظل النور في بيتي مشتعلًا إلى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولكنني كنت أتوقع شيئًا رهيبًا، فصعدت السلم، وقرعت الجرس. ففتح لي الباب إيجور، خادمنا الطيب النشيط. إن أول شيء خطف بصري في الممر معطف معلق إلى جانب ملابس أخرى. كان ينبغي أن أدهش، ولكنني لم أدهش لأنني كنت أتوقع ذلك. قلت لنفسي: نعم، صدق ظني. وسألت إيجور، فقال إن تروها تشفسكي هنا. وسألته هل هناك أحدٌ غيره أيضًا، فأجاب: لا. ما زلت أتذكر نبرة صوته. لكأنه كان يريد أن يبهجني وأن يبدد شكوكي. قلت لنفسي مرددًا: نعم... نعم... وأين الأولاد؟ إنهم نائمون، وهم بحمد اللّٰه في صحة جيدة.

اختنقت أنفاسي، وكنت لا أستطيع أن أوقف اصطكاك أسناني.

الأمر يختلف اذن عما كان يقع في الماضي. كنت أتخيل دائمًا أن كارثة ستحل، ثم لا تحل الكارثة. أما الآن فالأمر مختلف كل الاختلاف. إن ما تخيلته هذه المرة، وما فكرت فيه، يتحقق كله.

وأوشكت أن أنفجر باكيًا شاهقًا، ولكن الشيطان هتف يقول: "ابكِ أيها المسكين، رقق قلبك أيها المسكين، وفي أثناء ذلك يكونان قد انفصلا على هون وهدوء، فلا يبقى لك أي برهان على ما وقع بينهما، ثم تعيش حياتك كلها في شك وعذاب". فما إن سمعت هذا الكلام يهتف لي به الشيطان، حتى زال حزني فجأة، وتملكتني عاطفة عجيبة لن

تستطيع أن تفهمها، هي الفرح.. نعم لقد افرحني أن عذابي سينتهي بعد قليل، أنني أستطيع الآن أن أعاقب زوجتي، أن أتخلص منها، أن أطلق العنان للبغضاء. وهذا ما فعلته، فأصبحت وحشًا خبيثًا ماكرًا.

قلت لإيجور الذي كان يريد أن يذهب إلى الصالون: لا، لا، بل خذ عربة، وامضِ... هذه قسيمة حقائبي، فاذهب إلى المحطة، وائتني بها. هيا!...

فاجتاز إيجور الممر ليأخذ معطفه، فخفت أن يذهب إليهما لينبههما إلى أنني وصلت، فمشيت وراءه إلى حجرته، وظللت انتظره على بابها حتى ارتدى ملابسه. إنني أسمع أصوات كلام آتية من الصالون، وقرقعة سكاكين وأطباق. إنهما يأكلان، ولم يسمعا صوت جرس الباب حين قرعته.

قلت في نفسي: أخشى أن يخرجا حالًا. وارتدى إيجور معطفه ذا الياقة المصنوعة من فراء الاستراكان. فأخرجته، وأغلقت الباب وراءه. إنني الآن وحدي، وعليّ أن أباشر العمل. شعرت من ذلك بانزعاج، لم أعرف لماذا شعرت بذلك الانزعاج. ولكنني كنت أعرف أن كل شيء قد انتهى، وأن اقترافها للجريمة أمر لا شك فيه، وأنني سأعاقبها، وأقطع كل علاقة بها.

كنت أستطيع قبل ذلك أن أشك، وأن أقول لنفسي: لعلك مخطىء يا هذا، وقد تكون تصوراتك كلها باطلة. أما الآن فلم يبق محل للشك. لقد تم كل شيء، ما في ذلك ريب. سارت.. وحدها معه... في جنح الليل. لقد نسيت بهذا كل شيء نسيانًا تامًا. إنها لجرأة عجيبة في اقتراف الجريمة، إنها لوقاحة ما بعدها وقاحة. لم يبق من شك... كنت لا أخشى إلا شيئًا واحدًا، هو أن ينفصلا، وأن يلفقا أكذوبة جديدة، فيحرماني من إمكانية مفاجأتهما متلبسين بالجرم. ومن أجل ذلك، من أجل أن أوافيهما بأقصى سرعة، اتجهت إلى القاعة التي كانا فيها، أسير على رؤوس الأصابع، ولكنني سرت نحو القاعة عن طريق الممر وغرف الأطفال بدلًا من الصالون. كان الأبناء من أولادي ينامون في الغرفة الأولى. وكانت المربية تنام في الغرفة الثانية، فلما دخلت تحركت وأرادت أن تستيقظ، فتخيلت ما عسى أن يخطر ببالها إذا هي استطاعت أن تعرف الحقيقة، فأشفقت على نفسي، ولم أستطع أن أحبس دموعي، وظللت أسير على رءوس الأصابع حتى لا أوقظ الأولاد، وهرعت من خلال الممر إلى حجرة عملي، وهويت على الديوان باكيًا ناشجًا.

إنني رجل شريف، سليل أسرة محترمة، حلمت طوال حياتي بسعادة الحياة الزوجية، وما خنت امرأتي في يوم من الأيام... وها هي ذي الآن تُقبِّل موسيقيًا تافهًا لأن شفتيه حمراوان!.. وهي أم لخمسة أولاد...

لا، لا، إنها ليست بإنسان، إنها كلبة، كلبة حقيرة! وهي تفعل هذا كله قرب غرفة الأولاد، الذين كانت تتظاهر بحبهم تظاهرًا! أتكتب لي ما كتبته، ثم تتهادى على عنق هذا الرجل في هذه الصورة الوقحة؟ ماذا كنت أعرف عن هذا كله؟ لعلها كانت دائمًا هكذا! وهؤلاء الأولاد الذين أعدهم أولادي ألا يمكن أن يكونوا أبناءها من بعض الخدم؟

لو أنني وصلت في الغد، فاستقبلتني رشيقة لطيفة مرتدية أجمل ملابسها (تخيلت وجهها الجذاب البغيض في آن واحد)، لظل الوحش الغيور مسجونًا في نفسي إلى الأبد، ولمزقته. ترى ماذا تقول المربية لنفسها، وماذا يقول إيجور لنفسه، وماذا تقول لنفسها ليزا المسكينة التي أصبحت تفهم كل شيء؟ يا للوقاحة! يا للكذب! يا للشهوانية الحيوانية التي أعرفها حق المعرفة! أردت أن أنهض، فلم أستطع. إن قلبي قد بلغ من شدة الخفقان أني لا أستطيع أن أقف على قدمي. نعم، سأموت بسكتة قلبية، وبذلك تنتصر عليّ. إنها لا تريد غير هذا. وما هو القتل عندها؟ لا، لا، إنها ستسعد بموتي كثيرًا، ولن أتيح لها ذلك. أنا الآن هنا، وهما هنالك يأكلان، ويضحكان ضحكًا قويًا... نعم، إنه لا يزهد بها، رغم أنها ليست في ريعان الشباب. والحق أنها لا بأس بها، وهي غير خطرة على صحته الغالية. لماذا لم أذبحها قبل الآن؟ هذا ما هتفت به وقد تذكرت لحظة طردتها وحطمت كل ما كان على مكتبي. تذكرت الحالة النفسية التي كنت فيها عندئذ تذكرًا واضحًا. لم أتذكرها فحسب، بل شعرت مرة أخرى بتلك الحاجة نفسها إلى الضرب والتحطيم. واستبدت رغبة جامحة قاهرة في أن أفعل شيئًا، وخرج من رأسي كل ما عدا ذلك. وأصبحت كحيوان أو كإنسان أهاجته رؤية خطر يهدد حياته، فهو يعمل بدقة عظيمة، دون تعجل، ولكن دون أن يضيع دقيقة واحدة، وقد اتجهت جميع ملكاته إلى هدف واحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27

أول حركة قمت بها هي أنني خلعت حذائي. ثم اقتربت من الجدار الذي كانت بنادقي وخناجري معلقة عليه فوق الأريكة، فتناولت خنجرًا دمشقيًا لم يستعمل قبل ذلك، وكان مثقفًا حادًا، فأخرجته من غمده، فوقع الغمد على الأريكة، فقلت لنفسي: أرفع الغمد فيما بعد، أما الآن فيجب أن أباشر العمل، وإلا فقد تفلت مني. ثم خلعت عني معطفي الذي لم أخلعه طوال ذلك الوقت، وسرت حافيًا بهدوء، حتى وصلت إلى هناك، فاقتربت من الباب دون ضوضاء وفتحته على حين فجأة.

ما أزال أرى إلى الآن تعبير وجهيهما. وأنني لأذكره خاصة لأنه بث في نفسي فرحًا أليمًا عجيبًا. شيء فظيع. هذا ما كنت في حاجة إليه، لن أنسى، ما حييت، الذعر الذي لاح في وجهيهما حين رأياني أول لحظة. يخيل إليّ أنه كان جالسًا إلى المائدة، ولكنه ما إن رأني أو سمعني حتى هبَّ واقفًا أمام المرآة. كان الرعب مرتسمًا على وجهه. أما هي فقد كان وجهها يعبر عن الرعب، وعن شيء آخر غير الرعب. ولو لم يظهر في وجهها غير الرعب لكان من الممكن أن لا يقع ما وقع، ولكنني تخيلت، في اللحظة الأولى على الأقل، أنها كانت تفيض استياءً وانزعاجًا من أنني ظهرت في هذه اللحظة فقطعت عليها ما كانت مسترسلة فيه من حب وسعادة. لقد بدا لي أنها كانت لا تريد في تلك اللحظة شيئًا غير سعادتها ولم يدم ظهور هذه المعاني في وجهها إلا لحظة خاطفة. فإذا بتروها تشفسكي كأنه يتساءل بينه وبين نفسه: أأكذب عليه أم لا؟ إذا كان يجب أن أكذب عليه، فلأبدأ فورًا، وإلا يكون لنا معه أمر آخر. ولكن ماذا أقول له؟ ثم ألقى على زوجتي نظرة سائلة. وخيل إليّ أن ما كانت تشعر به زوجتي من استياء وحسرة قد لفه الآن قلق على صاحبها وخوف من أن أمسه.

توقفت عند العتبة لحظة، وأنا أخفي الخنجر وراء ظهري.

فإذا بتروها تشفسكي يبتسم، ثم يقول بلهجة فيها من عدم الاكتراث ما يثير الضحك في مثل هذه الظروف: "كنا نعنى بالموسيقى...".

وأردفت هي تقول مصطنعة تلك اللهجة نفسها: "ما كنا ننتظر وصولك..".

ولكن لم يتسع الوقت لا لها ولا له أن يكملا كلامهما، فإن الغضب الحانق الذي شعرتُ به منذ أسبوع قد عاد يستبد بي وشعرت مرةً أخرى بتلك الحاجة إلى التحطيم والعنف والاندفاع المجنون، واستسلمت لهذه العواطف.

لم يستطيعا أن يتما كلامهما. إذ بدأ عندئذ ذلك الشيء الذي ذعرا منه أشد الذعر، وقطع أية محاولة للشرح والتفسير.

لقد هجمت على زوجتي، وأنا ما أزال أخفي خنجري وراء ظهري حتى لا يستطيع أن يمنعني من طعنها في جنبها تحت الثدي. وكنت قد اخترت هذا المكان منذ البداية ولكنه رأى الخنجر في تلك اللحظة نفسها، فإذا هو يمسك يدي بحركة لم أكن أتوقعها منه، ويصيح قائلًا: "أأنت مجنون؟ عد إلى صوابك، ما بك؟ النجدة، النجدة!...".

وخلصت يدي من يده، وهجمت عليه. وإلتقت نظراته بنظراتي، فاصفر اصفرارًا عجيبًا، ثم إذا به، وهذا ما لم أكن أتوقعه أيضًا، يفلت مني، ويهرب إلى الباب مارًا من تحت البيانو. فاندفعت أجري وراءه، ولكنني شعرت بثقل في ذراعي الأيسر. إنها هي من تتمسك بي. فحاولت أن أتملص منها، ولكنها ازدادت تشبثًا بي، ولم تتركني وشأني. إن هذا الحاجز الذي لم أكن أتوقعه وهذا الثقل الذي يشدني، وملامستها الكريهة لي، كل ذلك قد زادني هياجًا، فشعرت أنني أصبحت مجنونًا كل الجنون، وأنني رجل رهيب فظيع، فسرني ذلك. فخلصت ذراعي اليسرى منها وضربتها بكوعي على وجهها. فصرخت وتركت يدي. وأردت مرة أخرى أن أندفع راكضًا وراء تروها تشفسكي، ولكنني تذكرت أنني حافٍ، ورأيت أن من المضحك أن أركض وراء عشيق زوجتي وأنا على هذه الحال. وكنت لا أريد أن أوحي بالضحك عليّ، بل بالخوف مني. كنت رغم الغضب المجنون الذي يعصف بي أدرك تمام الإدراك الأثر الذي أحدثه في الآخرين حتى لقد كان هذا الأثر الذي أحدثه في الآخرين هو الذي يوجهني ويقود خطواتي بعض الشيء. فإلتفتُ نحو زوجتي، فرأيتها قد وقعت على أحد المقاعد، ورفعت يدها إلى عينيها المروعتين، وأخذت تنظر إليّ كانت أنفاسها خوفًا وكراهية، كما يلاحظ ذلك في فأرة في الفخ حين يقترب عدوها الإنسان. وكنت، من جهتي، لا أرى فيها غير هذا الخوف وغير هذه الكراهية التي تشعر بها نحوي، وهما خوف وكراهية ناشئان عن حبها لشخص آخر غيري، لو أنها سكتت لكان من الممكن أن أكبح جماح نفسي وأن لا أفعل ما فعلت. ولكنها ما لبثت أن أخذت تتكلم وهي تقبض على يدي الممسكة بالخنجر.

"عد الى صوابك! ماذا بك؟ ماذا تظن؟ ليس هناك شيء، ليس هناك شيء، ليس هناك شيء، أحلف لك، أقسم لك!"

كنت ما أزال مترددًا، ولكن كلماتها الأخيرة هذه التي استنتجت منها نقيضها، أي استنتجت منها أن كل شيء تم، كانت تقتضي جوابًا عليها، وكان ينبغي أن يتناسب هذا الجواب الغضب الجامح التي وصلت إليها والتي كانت تزداد عنفًا لحظة بعد لحظة. إن للغضب قوانينه.

فصرخت أقول: "لا تكذبي يا حقيرة". ثم أمسكتها بيدي اليسرى من ذراعها. ولكنها أفلتت مني. فما كان مني إلا أن قبضت على عنقها، وقلبتها على الديوان، وأنا ما أزال أحمل الخنجر بيدي، وضغطت على رقبتها... يا لرقبتها ما كان أقساها!... فأمسكت يدي، ودفعتها من عنقها، وكأني لم أكن أنتظر غير ذلك، فأغمدت الخنجر في جنبها الأيسر.

حين يدعي الناس أنهم لا يتذكرون ما قاموا به أثناء فورات الغضب فإنهم يكذبون. كنت أدرك كل شيء إدراكًا واضحًا، ولم أفقد هذا الإدراك في لحظة من اللحظات. كنت كلما ازداد غضبي جنونًا، يزداد وعيي وضوحًا، فأرى كل ما أفعله رؤية جلية. لم أفقد وضوح شعوري لحظة واحدة، لا أستطيع أن أقول أنني أعرف سلفًا ما قد أقوم به من عمل. ولكني كنت في اللحظة التي أقوم فيها بأي عمل، أو ربما قبل ذلك بثانية، أحس بما سأقوم به، كأنما لأدع لنفسي حرية الإختيار، لأستطيع أن أقول لنفسي فيما بعد أنه كان في وسعي أن أتوقف. كنت أحس أنني سأطعنها تحت

الأضلاع، وأن الخنجر سيدخل. وفي اللحظة التي كنت أنفذ فيها هذا الفعل، كنت أعرف أنني أقوم بعمل فظيع لم أقم به من قبل، وأن هذا العمل ستكون له نتائج مروعة. ولكن ذلك كله ينقضي في ومضة، ويعقبه الفعل فورًا. وكنت أشعر شعورًا واضحًا وضوحًا عجيبًا بالعمل الذي أقارفه. أحسست بالمقاومة الخفيفة التي اعترضت طريق الخنجر حين اصطدم بالمشد الذي يشد جسم زوجتي تحت ثوبها، وأحسست بشيء آخر أيضًا، ثم دخلت السكين في اللحم اللين. ولقد أمسكت الخنجر بيديها، فتقطعت أصابعها، ولكنها لم تستطع أن توقف الخنجر عن النفاذ في جسمها.

أثناء إقامتي في السجن، حين وقعت الثورة الأخلاقية في نفسي، أمعنت النظر طويلًا في تلك الدقيقة، وتذكرت ما كان يمكنني أن أفعله، وفكرت. أتذكر الآن أنني خلال لحظة خاطفة سبقت الفعل، أحسست احساسًا فظيعًا بأنني أقتل، بأنني أقتل إمرأة، إمرأة لا حول لها ولا قوة، إمرأة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، هي إمرأتي. وأغلب الظن أنني بسبب ذلك اليقين المروع إنما سللت الخنجر فورًا بعد أن أغمدته، متمنيًا أن أتدارك الإثم الذي اقترفت. وظللت خلال لحظة من الزمن واقفًا بلا حراك، أنتظر ما سيعقب ذلك، وأريد أن أعرف هل من سبيل إلى إصلاح الخطأ.

وكانت قد انتصبت واقفة، وهي تصرخ: "دادا... دادا... لقد قتلني".

وسمعت المربية الصراخ، فهرعت إلينا، ووقفت عند عتبة الغرفة. كنت ما أزال واقفًا أنتظر ولا أريد أن أصدق...

وفي هذه اللحظة تفجر الدم من تحت المشد، فأدركت عندئذٍ أنني قد ارتكبت العمل الذي لا سبيل إلى إصلاحه، فقررت فورًا أنني أحسنت صنعًا، وأنني أردت ذلك، وكان لا بد لي أن أفعل ما فعلت. وانتظرت أن تسقط على الأرض. هتفت المربية "يارب!" وهرعت إليها، وفي تلك اللحظة رميتُ الخنجر وإلتفتُ نحو الباب لأخرج من الغرفة، "يجب على المرء أن يكون هادئًا، وأن يعرف ماذا يعمل". هذا ما قلته لنفسي دون أنظر إليها أو إلى المربية.

كانت المربية تصيح وتنادي الخادمة. وخرجتُ إلى الممر، وبعثتُ بالخادمة، ثم اتجهتُ الى غرفتي.. "ما الذي يجب أن أعمله الآن". طرحت على نفسي هذا السؤال، وأدركت جوابه فورًا. فلما دخلت إلى حجرة عملي، اقتربتُ من الجدار، وتناولتُ مسدسًا، ونظرتُ فيه، وكان محشوًا بالرصاص، فوضعته على المنضدة. ثم رفعت غمد الخنجر، واستلقيت على الديوان.

ظللت على هذه الحال مدة طويلة، لا أفكر في شيء ولا أتذكر شيئًا. وسمعت هرجًا ومرجًا في البيت. ها قد وصل شخص، وها هو ذا آخر يصل. وسمعت وقع أقدام إيجور، ورأيته يدخل بالحقائب إلى غرفتي. كأن هذا كان ضروريًا. قلت له:

- هل تعرف ماذا وقع؟ امضِ إلى البواب فقل له أن يستدعي الشرطة.

فلم يقل إيجور شيئًا، وخرج. فنهضت، وأغلقتُ الباب، وتناولت علبة سجائري فأشعلت سيجارة. ولكنني نمت قبل أن أنهيها، من فرط النعاس. أغلب الظن أنني نمت ما يقرب من ساعتين. وأذكر الآن أنني رأيت فيما يرى النائم أن علاقاتنا طيبة،

وأننا تشاجرنا ثم تصالحنا، وأن ثمة شيئًا رغم ذلك يمنع علاقتنا من أن تكون طيبة تمامًا. ثم استيقظت على طرقات الباب. قلت في نفسي: "إنهم رجال الشرطة. يخيّل إليَّ أنني ارتكبت جريمة قتل. ولكن لعل الطارق هو زوجتي. ولعله لم يقع شيء.

واستمر طرق الباب. فظللت صامتًا لا أجيب، وظللت أطرح على نفسي هذا السؤال: هل وقع الأمر، أم أنه لم يقع؟. ثم قلت: بل لقد وقع، نعم وقع. وتذكرت المقاومة التي لقيها خنجري حين اصطدم بالمشد، وتذكرت السكين وهي تغوص في اللحم. فشعرت من ذلك ببرد في ظهري. نعم، لقد قتلت. والآن جاء دوري، هذا ما قلته لنفسي.

وكنت أعرف مع ذلك أنني لن أنتحر. ولكني رغم معرفتي هذه بأنني لن أنتحر، نهضت وتناولت المسدس مرة أخرى. إنه لشيء عجيب: تذكرت أنني في الماضي هممت أن أنتحر عدة مرات، بل لقد كنت منذ قليل، في القطار على أتم الاستعداد لأن أنتحر. وكان يبدو لي ذلك سهلًا، لأنني كنت أتصور الدهشة التي ستصيب زوجتي حين تعلم بذلك. أما الآن فإنني لا أستطيع أن أقتل نفسي، بل إنني لا أستطيع أن أفكر في هذا. "لماذا أقتل نفسي؟"، هكذا تساءلت، ولم أستطع أن أفوز بجواب على هذا السؤال.

وطرق الباب مرة أخرى. قلت: يجب أن أرى أولًا من الطارق. وفي الوقت بعد ذلك متسع. فوضعت المسدس على المنضدة وغطيته بغطاء. ثم اقتربت من الباب وسحبت المزلاج. إنها أخت زوجتي: امرأة أيّم، طيبة، غبية بعض الغباء.

فلما رأتني صرخت تقول:

- فاسيا. ما هذا؟

ثم أخذت دموعها تنفجر من عينيها، ذلك أن من عادتها أن تبكي بسهولة.

فقلت بفظاظة:

- ماذا تريدين؟

كنت أشعر أنه ما يجب أن أخاطبها بغلظة، ولكنني لم أستطع أن أصطنع لهجة أخرى.

- فاسيا، إنها تموت. هكذا قال إيفان زاهاروفتش (لقد كان إيفان زاهاروفتش طبيبها، مستشارها).

فسألتها:

- أهو هناك؟

سألتها هذا السؤال، وعاودني سخطي وحنقي مرة أخرى. وأردفت أقول:

- ماذا تريدين؟

- إذهب إليها. حقًا إنه لشيء فظيع!...

فسألت نفسي:

- هل يجب أن أذهب إليها.

ثم رأيت فورًا أن ذلك واجب، وأن الأمور ربما كانت تجري دائمًا على هذا النحو، وأن الزوج الذي يقتل زوجته، كما فعلت أنا، ينبغي له أن يذهب إليها. قلت لنفسي:

- ما دام هذا واجبًا، فلأذهب إليها. وسيبقى في الوقت متسع لأن أقتل نفسي إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وتبعت أختها، وأنا أقول لنفسي: "سيكون كلام، وسيكون تمثيل... ولكنني لن أستسلم.". ثم قلت لأختها: "انتظري" فمن الحماقة أن أمضي إليها بلا حذاء. ولأنتعل خفي على الأقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

شيء غريب: حين خرجت من غرفتي واجتزت هذه الحجرات المألوفة عندي، أملت مرة أخرى أن لا يكون قد وقع شيء... ولكن الرائحة التي يجيء بها الأطباء دائمًا ما لبثت أن زكمت أنفي: يودوفورم، حامض الفوليك... قلت لنفسي: لا... لقد وقع الأمر. فلما مررت قرب غرفة الأطفال رأيت ابنتي ليزا. إنها تنظر إليّ بعينين تفيضان بالذعر. وتراءى لي أن أولادي الخمسة هناك، وأنهم ينظرون جميعًا إليّ. واقتربت من غرفتها. ففتحت الخادمة الباب، وخرجت. كانت ممددة على الوسائد وقد فكت أزرار قميصها، ووضع على جرحها شيء. إن رائحة اليودوفورم تملأ الغرفة. وقد خطف بصري خاصة أن وجهها متورم مزرق، ولا سيما قرب الأنف وتحت العينين. إن ذلك من آثار الضربة التي سددتها إلى وجهها بكوعي حين أرادت أن تمنعني من ملاحقته. لم يبق فيها شيء من جمال، لم يبق فيها إلا شيء يثير الاشمئزاز. قالت أختها:

- اقترب، اقترب.

قلت لنفسي: لعلها تريد أن تعترف بكل شيء، وأن أغفر لها. نعم، إنها تموت، وأستطيع الآن أن أفعل (قلت لنفسي هذا وأنا أريد أن أكون سمحًا كريمًا).

واقتربتُ منها. فرفعت نحوي، بجهد وعناء، عينيها اللتين كانت إحداهما متورمة، وقالت وهي تتوقف عند كل كلمة:

- انتصرت... قتلتني... (قالت ذلك وظهر في وجهها، من خلال الآلام الجسمية واقتراب الموت، ظهر في وجهها ذلك الكره الذي أعرفه حق المعرفة، ذلك الكره البارد الحيواني)... ولكن الأولاد.. الأولاد.. لن أسمح لك بأخذهم.. ستأخذهم هي (أشارت إلى أختها).

لم ترَ أن من الضروري أن تشير بكلمة واحدة إلى خطيئتها، إلى خيانتها، وذلك كان أهم شيء عندي.

وأردفت تقول وهي تنظر إلى ناحية الباب:

- نعم... تستطيع أن تفاخر بما عملت...

وأخذت تنشج. كانت أختها واقفة عند عتبة الباب يحيط بها أولادنا.

- أنظر ماذا صنعت!...

نظرت إلى الأولاد، ثم نظرت إلى وجهها المتورم، فرأيت فيها لأول مرة كائنًا إنسانيًا.

كل ما كان يزعجني، وكل ما كنت أشعر به من غيرة بدا لي تافهًا تفاهة مطلقة إذا قيس بما صنعت يداي. وددت لو أضع وجهي على يد إمرأتي لأقول لها: "اغفري لي". ولكنني لم أجرؤ أن أفعل ذلك.

كانت صامتة، مغمضة العينين، لعلها لا تملك من القوة ما يمكنها من الإستمرار في الكلام. ثم ارتعش وجهها المشوه فجأة، وتشنج، فدفعتني عنها في يسر. وقالت:

- لماذا كل هذا؟ لماذا؟

فقلت:

- سامحيني.

- أسامحك؟ هذا سخف! ليتني أستطيع أن لا أموت (صاحت تقول ذلك وهي ترفع رأسها، واتجهت عيناها المحمومتان إليّ). نعم، لقد انتصرت عليّ. إنني أحتقرك. آي... آه (كذلك صرخت هاذية مذعورة). هيا اقتلني، اقتلني، لست خائفة. ولكنهم جميعًا، جميعًا، وهو... لقد ذهب... لقد ذهب.

وأخذت منذ تلك اللحظة تهذي طوال الوقت. وأصبحت لا تعرف أحدًا وماتت في ذلك اليوم نفسه عند الظهيرة. وقد نقلوني قبل ذلك إلى مركز الشرطة، وقادوني من هناك إلى السجن.

مكثت في السجن أحد عشر شهرًا أنتظر صدور الحكم، وفي أثناء ذلك فكرت في ماضيّ وفهمت. كان النور قد أخذ يتسرب إلى شعوري منذ اليوم الثالث. ففي ذلك اليوم أخذوني إلى حيث كانت...

أراد أن يتم كلامه، ولكنه لم يستطع أن يحبس دموعه فتوقف عن الكلام. ثم بذل جهدًا قويًا، فتابع يقول:

- لقد بدأت أفهم، حين رأيتها في تابوتها...

قال ذلك ثم راح يبكي مرة أخرى، ولكنه ما لبث أن أسرع يكمل حديثه:

- فحين رأيت وجهها الميت فهمت ما صنعت يداي: فهمت أنني أنا الذي قتلتها، وأن هذا الكائن الذي كان حيًا حارًا قد أصبح بسببي أنا ساكنًا، أصفر كالشمع، باردًا، وأن هذا العمل لا سبيل إلى إصلاحه، في أي مكان، بأية وسيلة. إن من لم يعش هذه التجربة لا يستطيع أن يفهمها...

"أوه... أوه... أوه"، كذلك صرخ عدة مرات ثم سكت

وظللنا صامتين مدة طويلة. كان يبكي ناشجًا، ويرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه دون أن يقول شيئًا، وقد رق وجهه واستطال، حتى لكأن فمه أصبح يحتله كله. ثم قال فجأة:

"نعم، نعم، لو كنت أعرف ما أعرفه الآن، لجرت الأمور مجرى آخر. لو كنت أعرف ما أعرفه الآن لما تزوجتها مهما يكن من أمر... ولما تزوجت البتة".

وصمتنا مرة أخرى.

"سامحني"

قال لي ذلك، وأشاح بوجهه عني، ثم تمدد على المقعد وغطى جسمه بغطاء.

فلما وصل القطار إلى المحطة التي كان عليّ أن أنزل فيها، كانت الساعة قد بلغت الثامنة من الصباح، فاقتربت لأودعه.

لا أدري أكان نائمًا أم كان يتظاهر بأنه نائم. ولكنه لم يتحرك. فأزاح الغطاء، فخيّل إليّ أنه لم يكن نائمًا، قلت وأنا أمد إليه يدي:

- وداعًا.

فمد يده، وابتسم إبتسامةً خفيفة لا تكاد ترى، ولكن ابتسامته هذه كانت من شدة تأثيرها في النفس أنني وددت لو أبكي.

- سامحني.

هذا ما قاله. وتلك هي الجملة الأخيرة التي كان قد ختم بها قصته كلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

سترة تزرر من جانب وتصل إلى الركبة.

[←2]

مثل روسي قديم.

[←3]

أول قانون عائلي روسي.

[←4]

من الضواحي الشعبية بموسكو.

[←5]

كلمة عامية مستخدمة من طرف المترجم لتقريب المعنى للقارئ العربي.

[←6]

شخصية أقصوصة روسية (المترجم)